الاستنباطات والفوائد السعدية

من السور والآيات القرآنية

جَمْعٌ وَتَرْتِيبٌ لما حَوَاهُ تَفْسِيرُ
الشَّيخ عَبْدِالرَّحْمَنِ السَّعْدِيّ -رَحِمَهُ اللّهُ-
مِنَ الاسْتِنْبَاطَاتِ وَالفَوَائِدِ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا
مِنَ السُّوَرِ وَالآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ

جمع وترتيب

أحمد بن صالح بن عمر بن مرشد

ح دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
بن مرشد، أحمد صالح عمر
الاستنباطات والفوائد السعدية من السور والآيات القرآنية/ أحمد صالح عمر بن مرشد
الرياض، ١٤٤٢هـ
ص: ٢٢٦؛ سم: ١٧×٢٤
ردمك: ٠-٤٥-٨٣١٦-٦٠٣-٩٧٨
١- فضائل القرآن ٢- القرآن- السور والآيات أ. العنوان
ديوي: ٢٢٩،٢ ١٤٤٢/٩٥٥٧

رقم الإيداع: ٩٥٥٧/ ١٤٤٢
ردمك: ٠-٤٥-٨٣١٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ- ٢٠٢٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص. ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩
فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، حي السليمانية، شارع الشبيلي، جـ: ٠٥٣٣٥٥٠٠٥٩٩
هاتف، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaie@hotmail.com

دار الصميعي للنشر والتوزيع

الاستنباطات والفوائد السّعدية
من السُّور والآيات القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أَمَّا بعدُ: فقد امتنَّ اللهُ تعالى على الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدقة الاستنباط من سُور وآيات القرآن الكريم، حتى إنه أحيانًا يُوَفَّقُ لاستنباط ما يَصل إلى خمسين فائدة.

وقد يَسَّر الله تعالى تتبع هذه السُّور والآيات التي وقف عندها واستنبط منها الفوائد، وتَمَّ حصرها وترتيبها على شكل دروس؛ فتُدَوَّن الآية أو الآيات في أعلى الصفحة، ثم يَليها سردُ ما ذُكر فيها من فوائد، وتَمَّ ترقيمها لِيَسهل على القارئ ضبطُها.

وفيما يلي جدول يُبين السُّور والآيات التي استنبط منها فوائد كثيرة تزيد على عشر فوائد:

من آية ٦ من المائدة	٥١ فائدة
من سورة يوسف	٤٥ فائدة
من آية ٢٨٢ – ٢٨٣ من البقرة	٣٧ فائدة
من آية ٦٠ – ٨٢ من الكهف	٣٧ فائدة
من آية ١ – ٥٠ من القصص	٣٤ فائدة
من آية ١٧ – ٤٩ من ص	٢٥ فائدة

من آية ٢٤ – ٣٧ من الذاريات	١٦ فائدة
من آية ٨٤– ٩٥ من هود	١٤ فائدة
من آية ١٢ من المائدة	١٢ فائدة
من آية ٥٨ –٥٩ من النور	١٢ فائدة
من آية ٣٧ من الأحزاب	١١ فائدة

وقد تَمَّ نقلُ هذه الفوائد من تفسير الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المَوسوم بـ«**تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان**»، والنسخة المعتمدة في نقل هذه الفوائد هي الصادرة عن دار ابن الجوزي، والتي اعتنى بها الأستاذ سعد بن فواز الصميل وَفَّقَه الله، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ، وإليها تَمَّ عزوُ الأجزاء والصفحات في آخر كلِّ درس؛ فالرقم الأول للجزء، والذي يليه للصفحة فيه.

أسألُ اللهَ تعالى أن يجعل عملَنا كُلَّه صالحًا ولوجهِه خالصًا، ورحم الله الشيخ عبد الرحمن السعدي، وأسكنه فسيح جناته، وبالله التوفيق.

وصَلَّى اللهُ وسَلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

من أقوال العلماء
في امتياز الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ
بدقة الاستنباط

قال الشيخ عبد الله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- «اهتمَّ بترسيخ العقيدة السَّلَفِيَّة والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية والقواعد الأصولية والفوائد الفقهية»[١].

- «أهمُّ شيء سلامتُه من تأويلِ آيات الصِّفات؛ حيث فَسَّرها على منهج السلف، إضافة إلى ما فيه من الاستنباطات الدقيقة، وذِكر ما يُستفاد من كل آية يَمر بها في موضعها دون الإحالة إلى موضع آخر»[٢].

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«مِن أحسن التفاسير، له ميزات كثيرة: .... ومنها: دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحِكَم، وهذا يظهر جليًّا في بعض الآيات؛ كآية الوضوء في سورة المائدة، حيث استنبط منها خمسين حُكْمًا، وكما في قصة داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في سورة ص»[٣].

---

(١) تفسير ابن سعدي بهامش المصحف، تحقيق: عبد الرحمن المطيري، طبعة مؤسسة الرسالة، صفحة (٩).

(٢) تفسير ابن سعدي، طبعة دار ابن الجوزي، صفحة (أ).

(٣) تفسير ابن سعدي بهامش المصحف، تحقيق: عبد الرحمن المطيري، طبعة مؤسسة الرسالة، صفحة (١١).

وقال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ضَمَّن -رحمه الله تعالى- تفسيرَه كثيرًا مِن جلائل المعاني، ودقائق الاستنباط مِن آيات الذِّكْر الحكيم والقرآن المجيد»(١).

❊ ❊ ❊

(١) تفسير ابن سعدي، طبعة دار ابن الجوزي، صفحة (د).

مختارات من أقوال
الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تدبُّر القرآن الكريم

- «يأمر تعالى بِتَدَبُّرِ كتابه، وهو التأمل في معانيه وتحديق الفِكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن في تدبر كتاب الله مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كلُّ خير، وتُستخرج منه جميع العلوم...». [١/ ٣٢٩].

- بعد أن استنبط مِن آية الوضوء في سورة المائدة إحدى وخمسون فائدة قال: «ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها؛ ليزداد معرفة وعلمًا، ويزداد شُكرًا لله ومحبة له على ما شَرَعَه من الأحكام التي تُوَصِّل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة». [١/ ٤٠٣].

- «عِلْمُ القرآن أَجَلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامَّة لا يحتاج معها إلى تخَرُّص المُتكَلِّفين ولا إلى أفكار المُتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأَوَّلين والآخرين». [١/ ٥٢٦].

- «ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنَمِّيه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه». [٢/ ٦٠٦].

- «... هذا وإذا نظرتَ إلى الدليل العظيم والأمر الكبير- وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته- فإنَّه الباب الأعظم إلى العِلْم بالتوحيد، ويَحصل به من تفاصيله وجُمَلِه ما لا يحصل من غيره». [٤/ ١٦٥٨-١٦٥٩].

الدرس ١

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

فهذه السُّورة -على إيجازها- قد احتوت على ما لم تَحْتَوِ عليه سورةٌ من سُور القرآن.

١- فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يُؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة، يُؤخذ من لفظ: ﴿ٱللَّهِ﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى؛ التي أثبتَها لنفسه وأثبتها له رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تَشبيه، وقد دل على ذلك لفظ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، كما تقدم.

٢- وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾؛ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

٣- وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدِّينَ معناه الجزاء بالعدل.

٤- وتضمنت إثبات القَدَر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافًا للقَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة.

٥- بل تضمنت الردَّ على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾؛ لأنه معرفة الحق والعمل به. وكلُّ مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

٦- وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى؛ عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فالحمد لله رب العالمين. [١/ ٣٣-٣٤].

الدرس ٢

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآيات مِن العِبَر والآيات:

١- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلمًا؛ يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

٢- وفيه أن العبد إذا خَفِيَت عليه حكمةُ الله في بعض المخلوقات والمأمورات؛ فالواجب عليه: التسليم واتِّهام عقله والإقرار لله بالحكمة.

٣- وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم؛ بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

٤- وفيه فضيلة العلم من وجوه:

أ- أن الله تَعَرَّف لملائكته بعلمه وحكمته.

ب- أن الله عَرَّفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ج- أن الله أمرهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له لمَّا بان فضلُ علمه.

د- أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداءً.

٦- الاعتبار بحال أَبَوَي الإنس والجن، وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له.. إلى غير ذلك من العِبَر. [١/ ٥٥].

الدرس ٣

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

«... واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأُمَّة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خُوطبوا بها، وهي فعل أسلافهم، ونُسِبت إليهم لفوائد عديدة:

١- منها أنهم كانوا يتمدحون ويُزَكُّون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن آمن به؛ فبيَّن الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ما يبين به لكل واحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم؛ فكيف الظن بالمخاطبين؟!

٢- أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها؛ لأنها نِعَمٌ تَشملهم وتَعُمُّهم.

٣- أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كأن متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكأن الحادث من بعضهم حادثٌ من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

٤- أن أفعالهم أكثرها لم يُنكروها، والراضي بالمعصية شريكٌ للعاصي.. إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها الا الله. [١/ ٦٥-٦٦].

الدرس ٤

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأضاف الباري البيتَ إليه لفوائد:

١- أن ذلك يقتضي شدةَ اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره؛ لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وُسْعَهما في ذلك.

٢- أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام؛ ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

٣- أن هذه الإضافة هي السبب الجالب للقلوب إليه. [١/ ٩١-٩٢].

الدرس ٥

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: شديدُ الرحمة بهم عظيمُها.

١ - فمن رأفته ورحمته بهم: أن يَتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها.

٢ - أن مَيَّز عنهم مَن دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه.

٣- أن امتحنهم امتحانًا زاد به إيمانُهم، وارتفعت به درجتُهم.

٤ - أن وَجَّههم إلى أشرف البيوت وأجَلِّها. [١/ ١٠٤].

الدرس ٦

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكان صرفُ المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها الكلام والشُّبه؛ فلهذا بَسطها الله تعالى، وبَيَّنها أكمل بيان، وأَكَّدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات منها:

١- الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة.

٢- أن المعهود أن الأمر إما أن يكون للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فتدخل فيه الأمة تبعًا- أو للأمة عمومًا، وفي هذه الآية أَمَر فيها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ والأمه عمومًا في قوله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾.

٣- أنه ردَّ فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهلُ العِناد وأبطلها شبهةً شبهةً، كما تقدم توضيحها.

٤- أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبلة أهل الكتاب.

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كافٍ شافٍ، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦- أنه أخبر وهو العالم بالخفيات أن أهل الكتاب مُتقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم. [١/ ١٠٩].

الدرس ٧

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ودَلَّت هذه الآية على أن مَن لم يصبر فله ضِدُّ ما لَهُم؛ فحصل له الذمُّ من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين! وما أقل تعب الصابرين وأعظم عناء الجازعين!

وقد اشتملت هاتان الآيتان على:

١- توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لِتَخِفَّ وتَسْهُل إذا وقعت.

٢- وبيان ما تُقابل به إذا وقعت، وهو الصبر.

٣- وبيان ما يُعِين على الصبر وما للصابرين من الأجر.

٤- ويعلم حال غير الصابر بضد حالة الصابر.

٥- وأن هذا الابتلاءَ والامتحانَ سُنَّةُ الله التي قد خَلَت، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

٦- وبيان أنواع المصائب. [١/ ١١٥].

الدرس ٨

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾؛ فيدخل في ذلك: القولُ على الله بلا علم في شَرعه وقَدَرِه.

١ – فمَن وصف الله بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه أو أثبت له ما نفاه عن نفسِه؛ فقد قال على الله بلا علم.

٢ – ومن زعم أن لله ندًّا وأوثانًا تُقرب مَنْ عَبَدَها مِن الله؛ فقد قال على الله تعالى بلا علم.

٣– ومن قال: إن الله أحلَّ كذا أو حَرَّم كذا أو أمر بكذا أو نهى عن كذا بغير بصيرة؛ فقد قال على الله بلا علم.

٤– ومن قال: اللهُ خَلَقَ هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على الله بلا علم.

٥– ومن أعظم القول على الله بلا علم: أن يَتأول المتأولُ كلامَه أو كلام رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على معانٍ اصطلح عليها طائفةٌ من طوائف الضلال ثم يقول: إن الله أرادها.

فالقول على الله بلا علم مِن أكبر المحرمات وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها؛ فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها وجنودُه، ويبذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يَقدرون عليه. [١/ ١٢٤-١٢٥].

الدرس ٩

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخبر تعالى بما منَّ به على عباده؛ بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة؛ بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصيتم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام؛ فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾، فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثالَ أمر الله واجتنابَ نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى:

١- أن الصائم يترك ما حَرَّم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه؛ متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه؛ فهذا من التقوى.

٢- أن الصائم يُدَرِّبُ نفسه على مراقبة الله تعالى؛ فيترك ما تَهوى نفسه مع قدرته عليه؛ لعلمه باطِّلاع الله عليه.

٣- أن الصيام يُضَيِّق مجاري الشيطان؛ فإنه يَجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي.

٤- أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

٥- أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المُعْدَمِين، وهذا من خصال التقوى. [١/ ١٣٥-١٣٦].

الدرس ١٠

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: ولا تأخذوا أموالكم، أي: أموال غيركم.

أضافه إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله، ولأن أكله لمال غيره يُجَرِّئ غيره على أكل ماله عنده القدرة.

ولما كان أكلها نوعين: نوعًا بحق، ونوعًا بباطل، وكان المُحَرَّم إنما هو أكلها بالباطل قَيَّدَه تعالى بذلك.

١- ويدخل بذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية أو نحو ذلك.

٢- ويدخل فيه -أيضًا- أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة؛ كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل؛ لأنه ليس في مقابلة عِوَض مباح.

٣- ويدخل في ذلك أخذها بسبب غشٍّ في البيع والشراء والإجارة ونحوها.

٤- ويدخل في ذلك استعمال الأُجراء وأكل أُجرتهم.

٥- وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه.

٦- ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تَصح حتى يُقصد بها وجهُ الله تعالى.

٧- ويدخل في ذلك الأخذ من الزَّكَوات والصدقات والأوقاف والوصايا لمن ليس له حق منها أو فوق حقه؛ فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه. [١/ ١٤٠].

الدرس ١١

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأَمَرَهَم أن يأتوا البيوت من أبوابها؛ لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

ويستفاد من إشارة الآية أنه:

١- ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السَّهل القريب الذي قد جعل له مُوصلًا.

أ- فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظُر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه.

ب- والمتعلم والمُعَلِّم ينبغي أن يَسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده.

جـ- وهكذا كلُّ مَن حاول أمرًا من الأمور وأتاه من أبوابه وثَابَر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود. [١/ ١٤١].

الدرس ١٢

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

«يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق المُوصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير؛ من صدقة على مسكين أو قريب، أو إنفاق على من تجب مُؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك: الإنفاق في الجهاد في سبيل الله؛ فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن.

وفيها من المصالح العظيمة: الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه؛ فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة؛ فالنفقة له كالرُّوح لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء وشدة تكالُبهم؛ فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين:

أ- تَرْك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الرُّوح.

ب- وفِعل ما هو سبب مُوصل إلى تلف النفس أو الرُّوح؛ فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة:

١- فمَن ذلك تَرْكُ الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه الموجب لتَسَلُّط الأعداء.

٢- ومن ذلك تَغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سَفَر مَخوف أو مَحل مُسْبِعَة أو حيَّات، أو يصعد شجرًا أو بُنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه مِمَّن ألقى بيده إلى التهلكة.

٣- ومن ذلك: الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة.

٤- ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تَرْكُهَا هلاكٌ للرُّوح والدِّين. [١/ ١٤٤].

الدرس ١٣

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

«ولمَّا كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان أَمَر بالإحسان عمومًا؛ فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يُقَيِّده بشيء دون شيء».

فيدخل فيه:

١- الإحسان بالمال، كما تقدم.

٢- الإحسان بالجاه بالشفاعات ونحو ذلك.

٣- ويدخل في ذلك: الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم النافع.

٤- ويدخل في ذلك: قضاء حوائج الناس؛ من تفريج كرباتهم وإزالة شدائدهم وعيادة مَرْضاهم وتشييع جنائزهم وإرشاد ضَالِّهم وإعانة مَن يعمل عملًا، والعمل لِمَن لا يُحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به.

٥- ويدخل في الإحسان -أيضًا-: الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن تَعبد اللهَ كأنَّك تَراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فمَن اتَّصف بهذه الصفات كان مِن الذين قال الله فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وكان الله معه يُسَدِّده ويُرشده ويُعينه على كل أموره. [١/ ١٤٤-١٤٥].

الدرس ١٤

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ **دلالة على أمور:**

١- الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفًا أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

٢- الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك -أيضًا- معروف، يكون ليلةَ النحر بائتًا بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعيًا حتى يُسْفِر جدًّا، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

٣- أن الوقوف بمزدلفة مُتأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

٤، ٥- أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فِعْلُها وإظهارها

٦- أن مزدلفة في الحَرَم، كما قَيَّدَه بالحرام.

٧- أن عرفة في الحِلِّ، كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة. [١/ ١٤٩].

الدرس ١٥

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

ويدخل في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾:

١- تكميل الصلوات.

٢- الإكثار من ذكر الله؛ شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم؛ لما فيه سعادة العبد.

٣- وفي الآية الكريمة فضيلة العلم، وأنَّ على مَن عَلَّمه اللهُ ما لم يكن يعلم الإكثارَ مِن ذكر الله.

٤- وفيه الإشعار -أيضًا- أن الإكثار من ذكره سبب لتعليم علوم أُخر؛ لأن الشكر مقرون بالمزيد. [١/ ١٧٨].

الدرس ١٦

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه القصة عِبَرٌ كثيرة للأمة:

١- منها فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين وحفظ الأوطان وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين -ولو شَقَّت عليهم الأمور- فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين -ولو استراحوا قليلًا- فإنهم سيتعبون طويلًا.

٢- ومنها الانتداب لرياسة مَن فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين:

أ- إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير.

ب- وإلى القوة التي ينفذ بها الحق.

وأن مَن اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

٣- ومنها الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء: أنه ينبغي للأمير للجيوش أن يتفقدها عند فصولها؛ فيمنع من لا يصلح للقتال من رجال وخيل ورِكاب؛ لضعفه أو ضعف صبره أو لتخذيله أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر مَحض على الناس.

٤- ومنها أنه ينبغي عنده حضور البأس تقويةُ المجاهدين وتشجيعهم وحثُّهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

٥- ومنها أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته؛ فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تَنحل عزيمته، ولهذا من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسألك الثباتَ في الأمر والعزيمةَ على الرشد**».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأَتَوْا بكلام يدل على العزم المُصمم لما جاء الوقتُ نكص أكثرُهم.

ويشبه هذا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأسألك الرِّضا بعد القضاء**»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس هو الرضا الحقيقي. [١/ ١٨٣-١٨٤].

❀❀❀

الدرس ١٧

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [سورة البقرة].

هذه الآيةُ -آية الدَّيْنِ- أطولُ آية في كتاب الله، وقد استنبط الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها ومن الآية التي تليها ٣٧ فائدة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احتوت هذه الآيات على إرشاد الباري عبادَه في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح على العقلاء أعلى ولا أكمل منها؛ **فإن فيها فوائدَ كثيرةً منها:**

١- جواز المعاملات في الدُّيون؛ سواءً كانت ديون سَلَم أو شراء مُؤَجَّلًا ثمنه، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أَقَرَّهم عليه الملكُ الدَّيَّان.

٢- وجوب تسمية الأجل في جميع المُدَايَنات وحلول الإجارات.

٣- إذا كان الأجل مجهولًا فإنه لا يَحِل؛ لأنه غَرَر وخَطر، فيَدخل في المَيْسِر.

٤- أمره تعالى بكتابه الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق؛ كالذي للعبد عليه ولاية، وكأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء والأمناء، وقد

يقارب الوجوب كما إذا كان الحق متمحضًا للعبد؛ فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب بحسب الأحوال المقتضية لذلك، وعلى كل حال فالكتابة من أعظم ما تُحفظ به هذه المعاملات المؤجلة؛ لكثرة النسيان ولوقوع المغالطات وللاحتراز من الخونة الذين لا يَخشون الله تعالى.

٥- أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل؛ فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

٦- أن الكتابه بين المتعاملين من أفضل الأعمال ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذِمَمهما، كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور ليَحظى بثوابها.

٧- أن الكاتب لا بد أن يكون عارفًا بالعدل معروفًا بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفًا بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبرًا عدلًا عند الناس رضيًّا لم تكن كتابته مُعتبرة ولا حاصلًا بها المقصود الذي هو حفظ الحقوق.

٨- أن من تمام الكتابة والعدل فيها: أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بِحَسَبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم.

٩- أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من عَلَّمَه الله الكتابة فقد تَفَضَّل عليه بفضل عظيم.

فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى: أن يقضي بكتابته حاجات العباد ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾.

١٠- أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف مَنْ عليه الحق إذا كان يُحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك لصغره أو سفهه أو جنونه أو خَرَسه أو عدم استطاعته أملى عنه وليُّه، وقام وليه في ذلك مقامه.

١١- أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تَثبت بها الحقوق حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه مَنْ عليه الحق.

١٢- ثبوت الولاية على القاصرين مِن الصِّغار والمجانين والسفهاء ونحوهم.

١٣- أن الولي يقوم مقام مُوليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

١٤- أن من أَمنته في معاملة وفَوَّضته فيها، فقوله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك؛ لأنه إذا كان الولي على القاصرين يَنوب منابهم، فالذي ولَّيتَه باختيارك وفَوَّضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

١٥- أنه يجب على الذي عليه الحق إذا أملى على الكاتب أن يتقي الله ولا يَبخس الحق الذي عليه؛ فلا يُنقصه في قدره ولا في وصفه ولا في شرط من شروطه أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك فهو من المُطَفِّفين الباخسين.

١٦- وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

١٧- الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم؛ لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعًا حاضرًا فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة لكثرته وحصول المشقة فيه.

١٨- الإرشاد إلى شهادة رجلين عدلين، فإن لم يمكن أو تَعَذَّر أو تَعَسَّر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات؛ بيوع الإدارة وبيوع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

١٩- أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية؛ كالرواية والفتوى، فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

٢٠- الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا وقوة حافظة الرجل.

٢١- أن الشاهد لو نسي شهادته فَذَكَّرَه الشاهد الآخر فَذَكَرَ؛ أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير؛ لقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾، ومن باب أولى إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

٢٢- أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته ولو غلب على ظنه لم يَحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

٢٣- أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة؛ سواء دعي للتحمل أو للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها.

٢٤- أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشهيد؛ بأن يُدعَيا في وقت أو حالة تضرهما، وكما أنه نهيٌ لأهل الحقوق والمتعاملين أن يُضاروا الشهود والكُتَّاب فإنه -أيضًا- نهيٌ للكاتب والشهيد أن يُضار المتعاملين أو أحدهما، وفي هذا -أيضًا- أن الشاهد والكاتب إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة أنه يسقط عنهما الوجوب.

٢٥- وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف لا يَحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يُطيقون؛ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

٢٦- أنه لا يجوز أخذُ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت؛ لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

٢٧- التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

٢٨- أن تَعَلُّم الكتابة من الأمور الدينية؛ لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

٢٩- أن مَن خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله وأن يقضي بها حاجاتهم؛ لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾، ومع هذا فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.

٣٠- أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل: فأنتم فُسَّاق أو فاسقون، بل قال: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾، فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾: أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾، أي: علمًا تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل.

٣١- أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات؛ فمنه -أيضًا- تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تِبيان كل شيء.

٣٢- مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون والضمانات التي تكفل للعبد حصول حقه؛ سواء عَامَل برًّا أو فاجرًا، أمينًا أو خائنًا؛ فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

٣٣- أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضًا، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضًا يدل على أنه قد يكون مقبوضًا تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضًا؛ فيكون ناقصًا.

٣٤- أنه يستدل بقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدَّيْن الذي به الرهن: أن القول قول المرتهن صاحب الحق؛ لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يُقبل قولُه في ذلك لم تحصل به الوثيقة؛ لعدم الكتابة والشهود.

٣٥- أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال مَنْ عليه الحق أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

٣٦- أن مَن ائتمنه معاملة فقد عمل معه معروفًا عظيمًا ورضي بدينه وأمانته؛ فيتأكد على مَنْ له عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين:

أ- أداء لحق الله وامتثالًا لأمره.

ب- ووفاءً بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

٣٧- تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أَثِم قلبه الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها -كالشهادة بالباطل والزُّور- فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر مع أنه يجوز حضرًا وسفرًا، فللحاجة إليه؛ لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه عليمٌ بكل ما يعمله العباد؛ كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة. [١/ ٢٠٠-٢٠٥].

الدرس ١٨

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾، أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفِكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصرُه:

١- منها أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

٢- أن فيها تسميحًا لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنَّ مَنْ له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل وشَاوَرَهم في حادثة من الحوادث اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس يَستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع؛ فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته؛ لعلمهم بِسعيه في مصالح العموم، بخلاف مَن ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يُحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

٣- أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

٤- ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بمَلوم.

فإذا كان الله تعالى يقول لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو مِن أكمل الناس عقلًا وأغزرهم علمًا وأفضلهم رأيًا-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾؛ فكيف بغيره؟!

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾، أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه -إن كان يحتاج إلى استشارة- ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: اعتمد على حول الله وقوته مُتبرئًا من حولك وقوتك؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ عليه اللاجئين إليه. [١/ ٢٥٥-٢٥٦].

الدرس ١٩

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللَّاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم ألَّا تقوموا بحقهن؛ لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدِّينِ والمال والجمال والحسب والنسب وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن؛ فاختاروا على نظركم.

ومِن أحسن ما يُختار من ذلك صفةُ الدِّين؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها؛ فاظفر بذات الدِّينِ، تَرِبَت يمينُك**».

وفي هذه الآية:

١- أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره.

٢- ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين، ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾، أي: تظلموا، وفي هذا أنَّ تعرض العبد للأمر الذي يُخاف منه

الجور والظلم وعدم القيام بالواجب -ولو كان مباحًا- أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أُعطي العبد.

٣- أن المهر يُدفَع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك.

٤- فيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حُكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثه غير مأمور به، بل منهيٌّ عنه كالمشركة وكالفاجرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ﴾. [١/ ٢٧٥-٢٧٦].

❊ ❊ ❊

الدرس ٢٠

قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ينبغي لكم أيها -الأزواج- أن تُمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا.

من ذلك:

١- امتثال أمر الله وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

٢- أن إجباره نفسه -مع عدم محبته لها- فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة.

٣- وربما أن الكراهة تزول وتَخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك.

٤- وربما رُزق منها ولدًا صالحًا؛ فنفع والديه في الدنيا والآخرة.

وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بد من الفراق وليس للإمساك مَحِل، فليس الإمساك بلازم... [١/ ٢٩٣].

الدرس ٢١

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾، أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين:

١- بتيسير ما أمرهم به وتسهيله غاية التسهيل؛ بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيُحرج بذلك.

٢- ومن عفوة ومغفرته: أن رحم هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء عند تعذُّر استعماله.

٣- ومن عفوه ومغفرته: أن فَتَحَ للمذنبين باب التوبة والإنابة، ودعاهم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم.

٤- ومن عفوه ومغفرته: أن المؤمن لو أتاه بِقُراب الأرض خطايا، ثم لَقِيَه لا يشرك به شيئًا لأتاه بقرابها مغفرة. [١/ ٣١٠].

الدرس ٢٢

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم رَتَّب ما يحصل لهم على فعل ما يُوعظون به، وهو أربعة أمور:

١- الخيرية في قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفه الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

٢- حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يُثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذي هو القيام بما وُعظوا به؛ فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يُوفقون به لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر، وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها؛ فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

٣- قوله: ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧﴾، أي: في العاجل والآجل الذي يكون للرُّوح والقلب والبدن، ومِن النعيم المقيم؛ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر.

٤- الهداية إلى صراط مستقيم.

وهذا عموم بعد خصوص؛ لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم من كونها متضمنة للعلم بالحق ومحبته وإيثاره به والعمل به وتوَقُّف السعادة والفلاح على ذلك؛ فمن هُدي إلى صراط مستقيم فقد وُفِّق لكل خير واندفع عنه كلُّ شَرٍّ وضَيْرٍ. [١/ ٣٢٠-٣٢١].

الدرس ٢٣

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ الذي هو الشيطان.

في ضمن ذلك عدة فوائد منها:

١ – أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله وإخلاصه ومتابعته، فالجهاد في سبيل الله مِن آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت مِن شُعَب الكفر ومقتضياته.

٢ – أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويَحْسُن منه من الصبر والجَلَد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك؛ كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ الآية [النساء: ١٠٤].

٣– أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمدًا على ركن وثيق، وهو الحق والتوكل على الله، فصاحب القوة والركن الوثيق يُطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يُطلب ممن يقاتل عن الباطل الذي لا حقيقة له ولا

عاقبة حميدة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مَكْرُه مهما بلغ؛ فإنه في غاية الضعف الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين. [١/ ٣٢٤-٣٢٥].

الدرس ٢٤

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان المسلمون -إذ كانوا بمكة- مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النُّصُب والشروط؛ فإنها لم تُفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء؛ **لعدة فوائد:**

١- منها أن من حكمة الباري تعالى: أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم، ويبدأ بالأهم فالأهم والأسهل فالأسهل.

٢- أنه لو فُرض عليهم القتال مع قلة عَددهم وعُددهم وكثرة أعدائهم لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام؛ فروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها، ولغير ذلك من الحِكَم. [١/ ٣٢٥].

❀❀❀

الدرس ٢٥

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه وتحديق الفِكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك:

١- فإن في تدبر كتاب الله مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كلُّ خير وتُستخرج منه جميع العلوم.

٢- وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه:

أ- يُعَرِّف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال وما يُنَزَّه عنه من سمات النقص.

ب- ويُعَرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه.

ج- ويُعَرِّف العدو؛ الذي هو العدو على الحقيقه والطريق الموصلة إلى العذاب وصفة أهلها وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

٣- وكلما ازداد العبد تأملًا فيه ازداد علمًا وعملًا وبصيرةً؛ لذلك أمر الله بذلك وحَثَّ عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

٤- ومن فوائد التدبر لكتاب الله تعالى: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يُصَدِّق بعضه بعضًا ويُوافق بعضه بعضًا.

فترى الحِكَم والقصة والإخبارات تُعاد في القرآن في عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة لا يَنقض بعضها بعضًا؛ فبذلك يُعلم كمال القرآن وأنه مِن عند مَن أحاط علمه بجميع الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾، فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا. [١/ ٣٢٩-٣٣٠].

الدرس ٢٦

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾، أي: كامل العلم كامل الحكمة لا يَخفى عليه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر في أيِّ وقت كان وأيِّ محل كان، ولا يَخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيءٌ، بل كل ما خَلَقَه وشَرَعَه فهو متضمن لغاية الحكمة.

١- ومن علمه وحكمته: أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسَبَّب لإعدام نفس محترمة وأخرجها من الوجود إلى العدم؛ فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رقِّ العبودية للخلق إلى الحرية التامة.

٢- فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربًا إلى الله، ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذه المواضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار.

٣- ومن حكمته: أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ؛ لتكون رادعةً وكافةً عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

٤- ومن حكمته: أن أُوجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يُذنب فيَشق عليه أن يَحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك مَن بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذار تحميلهم، ويَخف عليهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخُفِّفت -أيضًا- بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

٥- ومن حكمته وعلمه: أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل. [١/ ٣٣٧].

الدرس ٢٧

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الآية دليل على:

١- أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر.

٢- أن كل من تُوُفِّي فقد استكمل واستوفى ما قُدِّر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفي»، فإنه يدل على ذلك؛ لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا.

٣- الإيمان بالملائكة ومدحهم؛ لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم وموافقته لمحله، ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه، فقال: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾، فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ و﴿عَسَى﴾ ونحوها واجبٌ وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه.

٤- وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة: وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصرًا فلا يستحق ذلك الثواب، والله أعلم.

٥- وفي الآية الكريمة دليل على أنَّ من عجز عن المأمور من واجب وغيره، فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، وقال في عموم الأوامر: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أمرتُكم بأمر فَأْتُوا منه ما استطعتم**»، ولكن لا يُعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾.

٦- وفي الآية تنبيهٌ على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما -مما يحتاج إلى سَفَر- من شروط الاستطاعة. [١/ ٣٢٤-٣٤٣].

الدرس ٢٨

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: فإذا فرغتم من صلاتكم -صلاة الخوف وغيرها- فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، **ولكن خُصَّت صلاة الخوف بذلك لفوائد:**

١- منها أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذِكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود: الصلاة؛ التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

٢- أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

٣- أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

٤- أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء،

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]؛ فأمر بالإكثار منه في هذه الحال.. إلى غير ذلك من الحِكَم. [١/ ٣٤٨].

الدرس ٢٩

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [سورة النساء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، **وفي هذا عدة فوائد:**

١- منها أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ليس ببدعٍ من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العددَ الكثير والجَمَّ الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

٢- أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يُصدق بعضًا ويوافق بعضهم بعضًا.

٣- أنه من جنس هؤلاء الرسل؛ فليعتبره المُعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم وأخلاقهم متفقة ومصدرهم واحد وغايتهم واحدة؛ فلم يقرنه بالمجهولين ولا بالكذابين ولا بالملوك الظالمين.

٤- أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم ومحبةً لهم واقتداءً بهديهم واستنانًا بسنتهم ومعرفةً بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقًا لقوله

تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات: ٧٩]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات: ١٠٩]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠﴾ [الصافات: ١٢٠]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١﴾ [الصافات: ١٣٠- ١٣١]؛ فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل -خصوصًا هؤلاء المُسَمَّوْن- في المرتبة العليا من الإحسان. [١/ ٣٨٢].

الدرس ٣٠

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤﴾ [سورة المائدة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾، أي: وأُحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية.

دلت هذه الآية على أمور:

١- لطف الله بعباده ورحمته لهم؛ حيث وَسَّعَ عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يُذَكُّوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب والفُهود والصَّقر ونحو ذلك مما يَصيد بنابه أو بمخلبه.

٢- أنه يشترط أن تكون مُعَلَّمَة بما يُعد في العرف تعليمًا؛ بأن يسترسل إذا أُرسل وينزجر إذا زُجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح؛ فإنه لا يُعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

٣- اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾، مع ما تقدم من تحريم المنخنقة، فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله

بثقله لم يُبح هذا؛ بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب؛ أي: المحصلات للصيد والمدركات له، فلا يكون فيها على هذا دلالة، والله أعلم.

٤- جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم؛ لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جوازَ اقتنائه.

٥- طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد؛ لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا؛ فدل على طهارته.

٦- فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المُعَلَّم بسبب العلم يُباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

٧- أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير ونحوهما ليس مذمومًا، وليس من العبث والباطل، بل هو أمر مقصود؛ لأنه وسيلة لحِلِّ صيده والانتفاع به.

٨- فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد؛ قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

٩- فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يُسَمِّ الله متعمدًا لم يبح ما قتل الجارح.

١٠- أنه يجوز أكل ما صاده الجارح؛ سواءً قتله الجارح أم لا، وأنه إن أدركه صاحبه وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها. [١/ ٣٩٥-٣٩٦].

الدرس ٣١

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [سورة المائدة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة؛ نذكر منها ما يَسَّره الله وسَهَّله.

«**ثم ذكر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **٥١ حكمًا**».

١- أن هذه المذكورات فيها: امتثالُها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأنه صدَّرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾ إلى آخرها، أي: يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

٢- الأمر بالقيام بالصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٣- الأمر بالنية للصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: بقصدها ونيتها.

٤- اشتراط الطهارة لصحة الصلاة؛ لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

٥- أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما عند إرادة الصلاة.

٦- أن كل ما يُطلق عليه اسم الصلاة من الفرض والنفل وفرض الكفاية وصلاة الجنازة- تُشترط له الطهارة حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء؛ كسجود التلاوة والشكر.

٧- الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحية والذقن طولًا، ومن الأُذن إلى الأُذن عرضًا، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسُّنَّة، ويدخل فيه الشعور التي فيه؛ لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.

٨- الأمر بغسل اليدين، وأن حَدَّهُما إلى المرفقين، و﴿إِلَى﴾ كما قال جمهور المفسرين بمعنى: (مع)؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾، ولأن الواجب لا يتمُّ إلا بغسل جميع المرفق.

٩- الأمر بمسح الرأس.

١٠- أنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعمُّ المسح بجميع الرأس.

١١- أنه يكفي المسح كيفما كان؛ بيديه أو أحدهما أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

١٢- أن الواجب المسح فلو غسل رأسه ولم يُمر يده لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.

١٣- الأمر بغسل الرِّجْلَيْن إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

١٤- فيها الرد على الرافضة على قراءة الجمهور بالنصب: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

١٥- فيه الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر في: (وأرجلِكم)، وتكون كل من القراءتين محمولة على معنى؛ فعلى قراءة (النصب) فيها غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة (الجر) فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

١٦- الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأن الله تعالى ذكرها مرتبة، ولأنه أدخل ممسوحًا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يُعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

١٧- أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

١٨- الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة؛ لتوجد صورة المأمور به.

١٩- الأمر بالغسل من الجنابة.

٢٠- أنه يجب تعميم الغسل للبدن؛ لأن الله أضاف التطهر للبدن ولم يخصصه بشيء دون شيء.

٢١- الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

٢٢- أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي مَنْ هما عليه أن ينوي ثم يعمم بدنه؛ لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

٢٣- أن الجنب يَصْدُق على من أنزل المني يقظةً أو منامًا أو جَامَعَ ولو لم يُنزل.

٢٤- أن من ذَكر أنه احتلم ولم يجد بَلَلًا فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم تتحقق منه الجنابة.

٢٥- ذكر مِنَّة الله تعالى على العباد بمشروعية التيمم.

٢٦- أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء؛ فيجوز له التيمم.

٢٧- أن من جملة أسباب جوازه: السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء، فالمرض يُجَوِّزُ التيمم مع وجود الماء؛ لحصول التضرر به، وباقيها يُجَوِّزُه العدم للماء ولو كان في الحَضَر.

٢٨- أن الخارج من السبيلين من بول وغائط ينقض الوضوء.

٢٩- استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلَّا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

٣٠- استحباب التكنية عما يُستقذر التلفظ به؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآيِطِ﴾.

٣١- أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.

٣٢- اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

٣٣- أنه مع وجود الماء -ولو في الصلاة- يبطل التيمم؛ لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

٣٤- أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء فإنه يلزمه طلبه في رَحله وفيما قرب منه؛ لأنه لا يقال: لم يجد، لمن لم يطلب.

٣٥- أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.

٣٦- أن الماء المتغير بالطاهرات مقدم على التيمم؛ أي: يكون طهورًا؛ لأن الماء المتغير ماء فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾.

٣٧- أنه لا بد من نية التيمم؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، أي: اقصدوا.

٣٨- أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، فيكون على هذا قوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾؛ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشادًا للأفضل؛ إذا أمكن التراب الذي فيه غبار منه فهو أولى.

٣٩- أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس؛ لأنه لا يكون طيبًا، بل خبيثًا.

٤٠- أنه يُمسح في التيمم الوجه واليدان فقط دون بقية الأعضاء.

٤١- أن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ شامل لجميع الوجه وأنه يعمه بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور ولو خفيفة.

٤٢- أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط؛ لأن اليدين عند الإطلاق كذلك، فلو كان يُشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

٤٣- أن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث كلها؛ الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة البدن؛ لأن الله جعلها بدلًا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد، وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم؛ لأن السياق في الأحداث، وهو قول جمهور العلماء.

٤٤- أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

٤٥- أنه لو نوى مَنْ عليه حدثان التيمم عنهما فإنه يجزئ؛ أخذًا من عموم الآية وإطلاقها.

٤٦- أنه يكفي المسح بأي شيء كان بيده أو غيرها؛ لأن الله قال: ﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾، ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

٤٧- اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

٤٨- أن الله تعالى فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده؛ ليطهرهم وليتم نعمته عليهم.

٤٩- أن طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح.

٥٠- أن طهارة التيمم وإن لم يكن فيها نظافة وطهاره تُدرك بالحس والمشاهدة- فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

٥١- أنه ينبغي للعبد أن يَتدبر الحِكم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها؛ ليزداد معرفةً وعلمًا، ويزداد شكرًا لله ومحبةً له على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة. [١/ ٣٩٨-٤٠٣].

الدرس ٣٢

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة المائدة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات.

١- أنَّا ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾، أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا؛ حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أُخذ عليهم الذي هو سببها الأعظم.

٢- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾، أي: غليظة لا تُجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر؛ فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد؛ أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده معها الهدى والخير إلا شرًّا.

٣- أنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه؛ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراد الله ولا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- أنهم ﴿نَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ﴾؛ فإنهم ذُكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى فنسوا حظًّا منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثيرٌ مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم وشامل لنسيان

العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه مما نسوه.

٥- الخيانة المستمرة التي ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين، ومن أعظم الخيانة منهم: كتمهم الحق عمَّن يعظهم ويُحسن فيهم الظن الحق وإبقاؤهم على كفرهم؛ فهذه خيانة عظيمة.

وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم؛ فكل من لم يقم بما أمر الله به وأُخذ به عليه الالتزام- كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب ونسيان حظ مما ذُكِّر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة؛ نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظًّا؛ لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩]، وقال في الحظ النافع: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥]. [١/ ٤٠٦-٤٠٧].

الدرس ٣٣

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [سورة المائدة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾، أي: بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم وعاندوها، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾، أي: بعصيانهم لله وظلمهم لعباد الله صار سببًا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات، ومن معاصيهم التي أَحَلَّت بهم المَثُلات وأوقعت بهم العقوبات: أنهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾، أي: كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضًا؛ فيشترك بذلك المباشر وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجبًا للعقوبة؛ لما فيه من المفاسد العظيمة؛ منها:

١- أن مجرد السكوت فعل معصية وإن لم يباشرها الساكت، فإنه كما يجب اجتناب المعصية فإنه يجب الإنكار على مَن فعل المعصية.

٢- أنه يدل على التهاون بالمعاصي وقلة الاكتراث بها.

٣- أن ذلك يجرئ العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يُردعوا عنها؛ فيزداد الشر وتعظم المصيبة الدينية والدنيويه، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر؛ حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولًا.

٤- أن في ترك الإنكار للمنكر يندرس العلم ويكثر الجهل، فإن المعصية مع تكرارها وصدورها من كثير من الأشخاص وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها يُظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالًا، وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقًّا؟!

٥- أن بالسكوت على معصية العاصين ربما تزينت المعصية في صدور الناس واقتدى بعضهم ببعض؛ فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة نَصَّ الله تعالى أن بني إسرائيل -الكفار منهم- لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾. [١/ ٤٣٩-٤٤٠].

❁ ❁ ❁

الدرس ٣٤

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة المائدة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، أي: اتركوه؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾، فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله خصوصًا هذه الفواحش المذكورة، وهي:

الخمر: وهو كل ما خامر العقل؛ أي: غطاه بسكره.

والميسر: وهو جميع المغالبات التي فيها عِوَض من الجانبين؛ كالمراهنة ونحوها.

والأنصاب: وهي الأصنام والأنداد ونحوها مما يُنصب ويعُبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها.

فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها؛ فمنها:

١- أنها رجس، أي: نجس خبث معنى، وإن لم تكن نجسة حسًّا، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.

٢- أنها من عمل الشيطان الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يُحذر منه وتحذر مصايده وأعماله؛ خصوصًا الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين والحذر منها والخوف من الوقوع فيها.

٣- أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومُعوقة له.

٤- أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بَثِّها خصوصًا الخمر والميسر؛ ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء؛ فإن في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حجاه ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين خصوصًا إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر -من غلبة أحدهما للآخر وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة- ما هو أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

٥- أن هذه الأشياء تصد القلب -ويتبعه البدن- عن ذكر الله وعن الصلاة اللَّذَيْن خُلِق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدان عن ذلك أعظم صد ويشتغل قلبه ويذهل لُبُّه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة ولا يدري أين هو؟! [١/ ٤٤٣-٤٤٤].

الدرس ٣٥

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [سورة المائدة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

... وحاصل هذا: أن الميت إذا حضره الموت في سفر ونحوه مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة أنهما ما خانا ولا كذبا ولا غَيَّرا ولا بدَّلَا فيبرآن بذلك مِن حق يتوجه إليهما، فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين؛ فإن شاء أولياء الميت فليقم منهم اثنان فيقسمان بالله لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين وأنهما خانا وكذبا فيَستحقون منهما ما يدَّعون، وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة تميم الداري وعدي بن بداء المشهورة حين أوصى لهما العدويُّ، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام منها:

١- أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

٢- أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلامته ما دام عقله ثابتًا.

٣- أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

٤- أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد، وزعم كثير من أهل العلم أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

٥- أنه ربما استُفيد من تلميح الحكم، ومعناه: أن شهادة الكفار -عند عدم غيرهم- حتى في غير هذه المسألة مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

٦- جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذورٌ.

٧- جواز السفر للتجارة.

٨- أن الشاهدين إذا ارتيب منهما ولم تَبد قرينة تدل على خيانتهما وأراد الأولياء أن يؤكدوا عليهم اليمين يَحبسوهما من بعد الصلاة؛ فيقسمان بصفةِ ما ذكر الله تعالى.

٩- أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما وتأكيد اليمين عليهما.

١٠- تعظيم أمر الشهادة؛ حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

١١- أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما وتفريقهما؛ لينظر عن شهادتهما.

١٢- أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة- قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله أن أيماننا أصدق من أيمانهما ولقد خانا وكذبا، ثم يدفع إليهما ما ادَّعَياه، وتكون القرينة مع أيمانهما قائمة مقام البينة. [١/ ٤٥٣-٤٥٤].

الدرس ٣٦

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ولكن ليذكرهم ويعظهم؛ لعلهم يتقون الله تعالى، **وفي هذا دليل على**:

١- أنه ينبغي أن يستعمل المُذَكِّر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى.

٢- وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شرًّا إلى شره كان تركه هو الواجب؛ لأنه إذا ناقض المقصود كان تركه مقصودًا.

[١/ ٤٨٢-٤٨٣].

الدرس ٣٧

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا ممن كذب على الله بأن نسب إلى الله قولًا أو حكمًا وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها ونسبة ذلك إلى الله ما هو من أكبر المفاسد، ويدخل في ذلك:

١- ادِّعاء النبوة، وأن الله يوحي إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه مع كذبه على الله وجرأته على عظمته وسلطانه يوجب على الخلق أن يَتَّبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء مَن خالفه وأموالهم.

٢- ويدخل في هذه الآية كل مَن ادعى النبوة؛ كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾، أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري الله في أحكامه ويشرع من الشرائع كما يشرعه الله.

٣- ويدخل في هذا كل مَن يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في

إمكانه أن يأتي بمثله، وأيُّ ظلم أعظم من دعوى الفقير -العاجز بالذات الناقص من كل وجه- مشاركة القوي الغنى الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته؟! [١/ ٤٩١].

الدرس ٣٨

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويدخل تحت هذا المنهي عنه:

١- ما ذُكِر عليه اسم غير الله؛ كالذي يذبح للأصنام وآلهة المشركين، فإن هذا مما أُهِلَّ لغير الله به المُحَرَّم بالنص عليه خصوصًا.

٢- ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذُبِح لله؛ كالضحايا والهدايا أو للحم والأكل إذا كان الذابح متعمدًا ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم: الناسي بالنصوص الأُخر الدالة على رفع الحرج عنه.

٣- ويدخل في هذه الآية: ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه...

٤- ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يَكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق ولا تُصدق حتى تُعرض على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن شَهِدَا لها بالقبول قُبلت، وإن ناقضتهما رُدَّت، وإن لم يُعلم شيء من

ذلك تُوقف فيها ولم تُصدق ولم تُكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يُحصيه إلا الله.

[١/ ٥٠٥-٥٠٦].

الدرس ٣٩

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

١- وفي هذه الآية دليلٌ على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حَوْلَ لها، بل حَوْلُها: حصادها في الزروع وجذاذ النخيل.

٢- وأنه لا تتكرر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالًا كثيرة إذا كانت لغير التجارة؛ لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

٣- وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر أنه لا يضمنها.

٤- وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبعث خارصًا يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثُّلُث أو الرُّبُع بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم. [١/ ٥١٦].

الدرس ٤٠

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم -وتحريمهم ما أَحَلَّ اللهُ- بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تَزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها فلم تُجْدِ فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه، فلو كانت حجة صحيحة لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، **فعلم أنها حجة فاسدة وشبهه كاسدة من عدة أوجه:**

١- ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

٢- أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا

كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئًا فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾.

فلو كان لهم علم وهم خصوم ألداء لأخرجوه، فلما لم يخرجوه عُلم أنه لا علم عندهم؛ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾، ومن بنى حججه على الخرص والظن فهو مبطل خاسر؛ فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟!

٣- أن الحجة لله البالغة -التي لم تُبق لأحد عذرًا- التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلهية والآثار النبوية والعقول الصحيحة والفِطَر المستقيمة والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل؛ لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلًا.

٤- أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلِّف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حَرَّم على أحد ما لا يتمكن من تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صِرف.

٥- أن الله تعالى لم يُجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعًا لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله ومندرجًا تحت إرادته.

٦- أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فإنهم لا يمكنهم أن يَطَّرِدُوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك واحتج بالقضاء والقدر لما قَبِلوا منه هذا الاحتجاج ولغضبوا من ذلك أشد الغضب؛ فيا عجبًا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟!

٧- أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق ويرون أنه الحق بمنزلة الصائل؛ فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام ولو كانوا يعتقدونه خطأ. [١/ ٥٢٠-٥٢١].

الدرس ٤١

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وفي هذه الآيات:

١- دليل على أن علم القرآن أَجَلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرُّص المتكلفين ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

٢- أن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين من اليهود والنصارى؛ فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف لا المجوس ولا غيرهم.

٣- فيه ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم. [١/ ٥٢٦].

الدرس ٤٢

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [سورة الأنعام].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآية:

١- دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختياريه لله تعالى؛ كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير.

٢- أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها.

٣- أن الله تعالى حكيم قد جَرَت عادته وسُنَّته: أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًّا لا اضطراريًّا، كما تقدم.

٤- أن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه؛ فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد إيمان، فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك. [١/ ٥٢٧].

الدرس ٤٣

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأعراف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

قال إبليس معارضًا لربه: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾، وموجب هذا: أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين وصعودها، وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ **فإنه باطل من عدة أوجه:**

١- أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل؛ لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليها ويكون تابعًا لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

٢- أن قوله: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث، فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم؛ وأيُّ نقص أعظم من هذا؟!

٣- أنه كَذَب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإن مادة الطين فيها من الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخفة

والطيش والإحراق، ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين. [٢/ ٥٣٥-٥٣٦].

الدرس ٤٤

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأعراف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وفي هذه الآيات:

١- دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة؛ حيث ذكر تعالى أنه لا يُتَصَوَّر أن يأمر بما تَستفحشه وتنكره العقول.

٢- أنه لايأمر إلا بالعدل والإخلاص.

٣- أن الهدايه بفضل الله ومَنِّه.

٤- أن الضلالة بخذلانه للعبد إذا تَوَلَّى -بجهله وظُلمه- الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال.

٥- أن مَن حسب أنه مهتد وهو ضال، فإنه لا عذر له؛ لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى. [٥٤١/٢].

الدرس ٤٥

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال؛ فآيسهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من كونه يوافقهم من وجوه متعددة:

١- من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك.

٢- من جهة أنه جعل ما هم عليه كذبًا، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

٣- اعترافهم بمنة الله عليهم؛ إذ أنقذهم الله منها.

٤- أن عودهم فيها بعد ما هداهم الله من المحالات بالنظر إلى حالتهم الراهنة وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل وأمحل المحال.

وحيث إن الله مَنَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل والهدى

والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾، أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾؛ فيعلم ما يصلح للعباد وما يُدبرهم عليه، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾، أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم؛ فإن من توكل على الله كفاه ويَسَّر له أمر دينه ودنياه. [٢/ ٥٦٤-٥٦٥].

الدرس ٤٦

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا الذي آتاه الله آياته يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله؛ فقص الله قصته تنبيهًا للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

وفي هذه الآيات:

١- الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان.

٢- الترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه.

٣- اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببًا للخذلان. [٢/٥٩٣].

الدرس ٤٧

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سورة الأنفال].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾؛ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده، وقدَّم تعالى أعمال القلوب؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها.

١- فيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

٢- ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنميه.

٣- أَنَّ أَولى ما يحصُلُ به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. [٢/٦٠٦].

الدرس ٤٨

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ [سورة الأنفال].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم؛ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأغاثكم بعدة أمور؛ **منها**:

١ – أن الله أمدكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾، أي: يردف بعضهم بعضًا.

٢ – ومِن نصره واستجابته لدعائكم: أن أنزل عليكم نعاسًا ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكم وعلامة على النصر والطمأنينة.

٣– ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطرًا؛ ليُطهركم به من الحدث والخَبَث، وليطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه.

٤– ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد. [٢/٦٠٨].

الدرس ٤٩

قصة غزوة بدر في سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾ [سورة الأنفال].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ رسول الله حقًّا:

١- منها أن الله وعدهم وعدًا فأنجزهموه.

٢- ومنها ما قال الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ...﴾ الآية [آل عمران: ١٣].

٣- ومنها إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب.

٤- الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم وثبتت أقدامهم وزال عنهم المكروه الوساوس الشيطانية.

٥- أن من لطف الله بعبده أن يُسهل عليه طاعته وييسرها بأسباب داخلية وخارجية. [٢/ ٦٠٩].

الدرس ٥٠

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [سورة الأنفال].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

فذكر هنا أن مَن اتَّقى الله حصل له أربعة أشياء؛ كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

١- الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يُفَرِّق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

٢، ٣- تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يُفَسَّر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

٤- الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. [٢/ ٦١٥].

الدرس ٥١

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [سورة الأنفال].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾، أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا إلى السَّلْم، أي: الصلح وترك القتال ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلًا على ربك؛ **فإن في ذلك فوائد كثيرة منها:**

١- أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم.

٢- أن في ذلك إجمامًا لِقُواكم واستعدادًا منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك.

٣- أنكم إذا أصلحتُم وأمن بعضكم بعضًا وتمكن كلٌّ من معرفة ما عليه الآخر؛ فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

فكل مَن له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان؛ لحُسنه في أوامره ونواهيه، وحُسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجهٍ؛ فحينئذ يَكثر الراغبون فيه والمُتَّبعون له، فصار هذا السَّلْم عونًا للمسلمين على الكافرين.

ولا يُخاف من السَّلْم إلا خَصْلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم

بذلك خَدْع المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم؛ فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك؛ فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك. [٢/ ٦٢٧-٦٢٨].

الدرس ٥٢

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة: أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم رأوا بآرائهم الفاسدة أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه ويجعلوا مكانه من أشهر الحِل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا؛ فهذا -كما أخبر الله عنهم- أنه زيادة في كفرهم وضلالهم لما فيه من المحاذير؛ منها:

١- أنهم ابتدعوه مِن تلقاء أنفسهم وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريئان منه.

٢- أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حرامًا والحرام حلالًا.

٣- أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده ولَبَّسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

٤- أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قُبحها عن

النفوس، وربما ظُنَّ أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل.

ولهذا قال: ﴿... يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: ليوافقوها في العدد؛ ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾.

أي: زَيَّنت لهم الشياطين الأعمال السيئة؛ فرأوها حسنة بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٧﴾، أي: الذي انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا. [٢/ ٦٥١-٦٥٢].

الدرس ٥٣

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآية الكريمة:

١- فضيلة أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا مَن أنكر صحبة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كافرًا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

٢- فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٣- أن الحزن قد يَعرض لخواص عباده الصِّدِّيقين، مع أن الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه؛ فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة. [٢/ ٦٥٥].

الدرس ٥٤

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

أي: ومِن هؤلاء المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بالأقوال الرديَّة والعيب له ولدينه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾، أي: لا يُبالون بما يقولون من الأذية للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويقولون: إذا بلغه عنَّا بعض ذلك جئنا نعتذر إليه فيقبل منا؛ لأنه أُذُنٌ، أي: يقبل كل ما يقال له لا يميز بين صادق وكاذب. وقصدهم -قَبَّحهم الله- فيما بينهم: أنهم غير مكترثين بذلك ولا مهتمين به؛ لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل؛ فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة:

١- أعظمها أذية نبيهم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي جاء لهدايتهم وإخراجهم من الشَّقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

٢- عدم اهتمامهم -أيضًا- بذلك، وهو قَدْرٌ زائد على مجرد الأذية.

٣- قدحهم في عقل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلًا وأتمهم إدراكًا وأثقبهم رأيًا وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، أي: يقبل من قال له خيرًا وصدقًا. [٢/ ٦٦٣].

الدرس ٥٥

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا -أيضًا- من مخازي المنافقين، فكانوا -قَبَّحهم الله- لا يَدَعون شيئًا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالًا إلا قالوا وطعنوا بغيًا وعدوانًا، فلما حث الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على الصدقة بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم؛ كلٌّ على حسب حاله، منهم المكثر ومنهم المقل؛ فيَلمزون المكثر منهم بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا! فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾، أي: يعيبون ويطعنون ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فيقولون: مُراءون قصدهم الفخر والرياء، ويلمزون الَّذين لا يَجِدون إلا جُهْدَهم فيخرجون ما استطاعوا، ويقولون: الله غني عن صدقاتهم؛ ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾. فقابلهم الله على صنيعهم بأن سخر منهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾؛ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير منها:

١- تتبعهم لأحوال المؤمنين وحرصهم على أن يجدوا مقالًا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢- طعنهم بالمؤمنين؛ لأجل إيمانهم كفرًا بالله تعالى وبُغضًا للدِّين.

٣- أن اللَّمْزَ مُحرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة فأقبح وأقبح.

٤- أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي هو إعانته وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

٥- أن حكمهم على من أنفق مالًا كثيرًا بأنه مراء- غلطٌ فاحش وحكم على الغيب ورَجْمٌ بالظن، وأيُّ شر أكبر من هذا ؟!

٦- أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «الله غني عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل؛ فإن الله غني عن صدقة المتصدقين بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله -وإن كان غنيًا- فهم فقراء إليه؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧]، وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بَيِّن، ولهذا كان جزاؤهم أن يَسخر الله منهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾. [٢/ ٦٧١-٦٧٢].

❀❀❀

الدرس ٥٦

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يقول تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، **وذلك لأسباب كثيرة منها:**

أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي بخلاف الحاضرة؛ فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيحدث لهم بسبب هذا العلم تصورات حسنة وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية، وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية...

وفي هذه الآية دليل على:

١ - أن الأعراب أحرص على الأموال وأشحُّ فيها.

٢ - الأعراب كأهل الحاضرة؛ منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تَعَرُّبِهم وباديتهم، إنما ذَمَّهم على ترك أوامر الله وأنهم في مظنة ذلك.

٣- أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويَغلظ ويَخف بحسب الأحوال.

٤- فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشرِّ ممن يعرفه؛ لأن الله ذم الأعراب وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر ألَّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٥- أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصول الدين وفروعه؛ كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبر والصلة والإحسان والكفر والنفاق والفسوق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذلك، فإن في معرفتها يُتمكن من فعلها إن كانت مأمورًا بها، أو تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهي عنها.

٦- أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق مُنشرح الصدر مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنمًا ولا تكون مغرمًا. [٢/ ٦٧٨-٦٨٠].

الدرس ٥٧

قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى في هذه الآية:

١- دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة؛ فإنها أموال تُنَمَّى ويكتسب بها، فمن العدل أن يُواسى منها الفقراء؛ بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة، وما عدا أموال التجارة؛ فإن كان المال يُنَمَّى كالحبوب والثمار والماشية المتخذة للنماء والدَّر والنسل فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها؛ لأنها إذا كانت للقُنْيَة لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالًا يتمول ويَطلب منه المقاصد المالية، وإنما صُرِف عن المالية بالقنية ونحوها.

٢- أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

٣- استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهرًا؛ بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه، ويؤخذ من المعنى: أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللَّيِّن والدعاء له ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة وسكون لقلبه، وأنه ينبغي تنشيط مَن أنفق نفقة وعمل عملًا صالحًا بالدعاء له والثناء ونحو ذلك. [٢/ ٦٨٢-٦٨٣].

الدرس ٥٨

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

في هذه الآيات عدة فوائد منها:

١- أن اتخاذ المسجد الذي يُقصد به الضرار لمسجد آخر بقُربه أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذي اطُّلِع على مقصود أصحابه.

٢- أن العمل -وإن كان فاضلًا- تُغَيِّرُه النية؛ فينقلب منهيًّا عنه، كما قلبت نيةُ أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

٣- أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها، كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها؛ لأن الله عَلَّل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- النهي عن الصلاة في أماكن المعصية والبعد عنها وعن قربها.

٥- أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أَثَّرت معصية المنافقين في مسجد الضِّرَار، ونُهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن، كما أثَّرت في مسجد قباء؛ حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾، ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزور قباء كلَّ سَبْتٍ يُصلي فيه، وحَثَّ على الصلاة فيه.

٦- يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية أربع قواعد مهمة، وهي:

أ- كل عمل فيه مضارة لمسلم.

ب- أو فيه معصية لله؛ فإن المعاصي من فروع الكفر.

جـ- أو فيه تفريق بين المؤمنين.

د- أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

٧- أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله؛ بمنزلة الإصرار على المعصية، حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة، بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

٨- أنه إذا كان مسجد قباء مسجدًا أُسِّس على التقوى، فمسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أَسَّسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له مِن باب أولى وأحرى.

٩- أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسس على التقوى الموصل لعامله إلى جنات النعيم، والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال هو العمل المؤسس على شَفَا جُرُف هارٍ فانهار به في نار جهنم، والله لايهدي القوم الظالمين. [٢/ ٦٨٦-٦٨٧].

الدرس ٥٩

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وفي هذه الآيات:

١- دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات وأعلى النهايات؛ فإن الله جعلها نهاية خواص عبادة وامتن عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

٢- لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

٣- أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

٤- أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن مَن لا يبالي بالذنب ولا يُحرج إذا فعله- فإن توبته مدخولة وإن زعم أنها مقبولة.

٥- أن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًّا، وانقطع عن المخلوقين.

٦- أن من لطف الله بالثلاثة أن وَسَمَهم بوسم ليس بعار عليهم؛ فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾، إشارة إلى أن المؤمنين خَلَّفوهم، أو خُلِّفوا عمَّن بت في قبول عذرهم أو في رَدِّه، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

٧- أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾. [٢/ ٦٩١-٦٩٢].

الدرس ٦٠

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة التوبة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يقول تعالى منبهًا لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ﴾، أي: جميعًا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾- أي: من البلدان والقبائل والأفخاذ- ﴿طَآئِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى، ثم نَبَّه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾، أي: القاعدون ﴿فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: ليتعلموا العلم الشرعي ويعلموا معانيه ويفقهوا أسراره، وليُعَلِّموا غيرهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

١- ففي هذا فضيلة العلم وخصوصًا الفقه في الدين وأنه أهم الأمور.

٢- وأن مَن تعلم علمًا فعليه نشره وبَثُّه في العباد ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العِلم عن العَالِم من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون؛ فأيُّ منفعة حصلت

للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علمًا ومَنَحَه فهمًا.

٣- وفي هذه الآية -أيضًا- دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة مَن يقوم بها ويوفر وقته عليها ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها لتقوم مصالحهم وتتم منافعهم ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب؛ فالأعمال متباينة والقصد واحد، وهذه من الحكمة النافعة في جميع الأمور. [٢/ ٦٩٣-٦٩٤].

الدرس ٦١

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة يونس].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ هل هو صحيح أم غير صحيح؟ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾، أي: أسأل أهل الكتاب المنصفين والعلماء الراسخين؛ فإنهم سيُقرون لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى -بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم- كذبوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعاندوه ورَدُّوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يَستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به وبرهانًا على صدقه؛ فكيف يكون ذلك؟!

فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

١- أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العُدُول الصادقين منهم، وأما مَن عداهم فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربَّانيين؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وخلفائه ومَن بعدهم.

٢- أن شهادة أهل الكتاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبنية على كتابهم التوراة الذي يَنتسبون إليه، فإن كان موجودًا في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقه ويشهد له بالصحة؛ فلو اتفقوا من أولهم وآخرهم على إنكار ذلك لم يقدح بما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣- أن الله تعالى أمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كان عندهم ما يَردُّ ما ذَكَرَه الله لعبده لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك كان عدم رد المعادي وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القران وصدقه.

٤- أنه ليس أكثر أهل الكتاب ردَّ دعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعًا واختيارًا، فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل الكتاب.

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق ومَن تبعهم من العوام الجهلة ومَن تَدَيَّن بدينهم اسمًا لا معنى؛ كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويجًا

لمُلكهم وتمويهًا لباطلهم، كما يَعرف ذلك مَن عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾؛ كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾، وحاصل هذا: أن الله تعالى نهى عن شيئين:

١- الشك في هذا القرآن والامتراء منه.

٢- وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تَقبل التكذيب بوجه.

ورَتَّب على هذا الخَسار وهو عدم الربح أصلًا، وذلك بفوت الثواب في الدنيا والآخرة وحصول العقاب في الدنيا والآخرة.

والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن وطمأنينة القلب إليه والإقبال عليه علمًا وعملًا، فبذلك يكون العبد من الرَّابحين الذين أدركوا أَجَلَّ المطالب وأفضل الرَّغائب وأتم المناقب وانتفى عنهم الخَسار. [٢/ ٧٣٠-٧٣٢].

الدرس ٦٢

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة هود].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير:

١- أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأن شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك.

٢- أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتُخشى العقوبة العاجلة على مَن تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد؛ فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن بَخَسَ أموال الناس يريد زيادة ماله عوقب بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾، أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم.

٤- أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام

وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خيرٌ له؛ لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المَحْق وضد البركة.

٥- أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.

٦- أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

٧- أن المال الذي يرزقه الله الإنسان وإن كان الله قد خوله إياه، فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانة عنده؛ عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا كما يزعمه الكفار ومَن أشبههم أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون؛ سواء وَافَقَ حكم الله أو خالفه.

٨- أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها: أن يكون أول مُبادر لما يأمر غيره به وأول مُنته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢].

٩- أن وظيفة الرسل وسنتهم ومِلتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفاسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة: هي التي تَصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

١٠- أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملومًا ولا مذمومًا في عدم فعله ما لا يقدر عليه؛ فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

١١- أن العبد ينبغي له ألَّا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعينًا بربه متوكلًا عليه سائلًا له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لمُولِيه ومُسديه، ولا يعجب بنفسه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨﴾.

١٢- الترهيب بأَخَذَات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تُذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

١٣- أن التائب من الذنب كما يُسمح له عن ذنبه ويعفى عنه، فإن الله تعالى يحبه ويَوده، ولا عبرة بقول من يقول: «إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه بالعفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود».

فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾.

١٤- أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة؛ قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئًا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجمَ قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب حسب القدرة والإمكان. [٢/ ٧٦٤-٧٦٦].

الدرس ٦٣

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى بعد تفسيره لسورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فصل في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧﴾، وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد -ثم سرد ٤٥ فائدة رَحِمَهُ اللَّهُ- فمن ذلك:

١- أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار؛ فتبارك من قَصَّها فأحسنها ووضحها وبَيَّنها.

٢- أن فيها أصلًا لتعبير الرؤيا؛ فإن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله مَن يشاء من عباده، وإن أغلب ما تُبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة.

٣- ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دَارَس أحدًا؛

يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً وهو أمي لا يخطُّ ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة وماكان لديهم؛ إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

٤- ينبغي البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تُخشى مضرته؛ لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

٥- أن نعمة الله على العبد نعمة على مَن يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾، ولما تَمَّت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العِزِّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

٦- أن العدل مطلوب في كل الأمور؛ لا في معاملة السلطان رعيته فقط ولا فيما دونه، بل حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدَّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيهم.

٧- الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكَذَبوا عدة مرات وزَوَّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه وفي إتيانهم عشاء يبكون.

٨- أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه فالله خير الراحمين، ولهذا في أصح الأقوال: أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء؛ فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هُداة.

٩- ما منَّ الله به على يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من العلم والحلم ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به وتَمَّم ذلك بأن لا يُثرب عليهم ولا يُعيرهم به، ثم بره العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

١٠- أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]- كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خفَّ عن إخوته الإثم الكبير.

١١- أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يُعلم أنه

كان على غير وجه الشرع: أنه لا إثم على مَن باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ باعه إخوتُه بيعًا حرامًا لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر؛ فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا، وسماه الله سيدًا، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

١٢- الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهن الفتنة، والحذر -أيضًا- من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحُّدها بيوسف وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه؛ فسجن بسببها مدة طويلة.

١٣- أن الهم الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يُرَقِّيه إلى الله زلفى؛ لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهي طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾، ومن السبعة الذين يُظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظَلَّ إلا ظله أحدهم: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، وإنما الهَمُّ الذي يلام عليه العبد: الهَمُّ الذي يساكنه ويصير عزمًا ربما اقترن به الفعل.

١٤- أن من دخل الإيمان قلبه وكان مخلصًا لله في جميع أموره، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ

رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، على قراءة مَن قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله وخَلَّصه من السوء والفحشاء.

١٥- أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلًّا فيه فتنة وأسباب معصية أن يَفر منه ويهرب غاية ما يمكنه؛ ليتمكن من التخلص من المعصية؛ لأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما راودته التي هو في بيتها فَرَّ هاربًا يطلب الباب؛ ليتخلص من شرها.

١٦- أن القرائن يُعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، هذا إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قَدِّ القميص، واستدل بقدِّه من دُبره على صدق يوسف وكذبها، ومما يدل على هذه القاعدة أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق -خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة- فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر -أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد- حاملًا، فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهدًا؛ فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

١٧- ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لُمْنَها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ٣١]، وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١]، وقالت النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

١٨- أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتُلي بين أمرين؛ إما فعل معصية وإما عقوبة دنيوية: أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان: أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار.

١٩- ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

٢٠- أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن

الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس -وإن كان معصية- ضارًّا لصاحبه.

٢١- أنه كما على العبد عبودية الله في الرخاء فعليه عبودية في الشدة؛ فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته؛ حيث ظنَّا فيه الظن الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: ٣٦]، وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما مُتشوقين لتعبيرها عنده- رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما؛ ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، وبَيَّن لهما أولًا: أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم: إيمانه وتوحيده وتركه ملة مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبَيَّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقةَ التوحيد وبرهن عليه.

٢٢- أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سُئل المفتي -وكان السائل حاجته من غير سؤاله أشد- أنه ينبغي أن يُعَلِّمَه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفَتيَان عن الرؤيا قَدَّم لهما -قبل تعبيرها- دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

٢٣- أن مَنْ وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من

الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظَنَّ أنه ناج من الفَتَيَيْن: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

٢٤- أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وألَّا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وألَّا يمتنع من التعليم- أو لا ينصح فيه- إذا لم يفعل السائل ما كَلَّفه به المعلم؛ فإن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد قال ووَصَّى أحد الفَتَيَيْن أن يَذكره عند ربه فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلًا مستفتيًا عن تلك الرؤيا؛ فلم يُعنفه يوسف ولا وبَّخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًّا من كل وجه.

٢٥- أنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دَلَّهم مع ذلك على ما يصنعون في تلك السِّنين المُخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته.

٢٦- أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

٢٧- فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم

التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العِزُّ والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

٢٨- أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٤١]، وقال المَلِكُ: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

٢٩- أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل؛ إذا كان في ذلك مصلحة ولم يَقصد به العبد الرياء وسَلِم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾، وكذلك لا تُذم الولاية؛ إذا كان المُتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها؛ إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يُذم؛ إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودًا غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يُرد بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور يُنهى عن طلبها والتعرض لها.

٣٠- أن الله واسع الجود والكرم؛ يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان:

١- الإيمان.

٢- التقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ويُشَوِّقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

٣١- أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم لا بأس بها؛ لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المُخصبات؛ للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

٣٢- حُسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلات جدًّا، وحتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب المِيرة منها؛ لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

٣٣- مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾.

٣٤- أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ

لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

٣٥- أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر؛ فإن الأسباب -أيضًا- من القضاء والقدر لأمر يعقوب؛ حيث قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾.

٣٦- جواز استعمال المكايد التي يُتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم.

٣٧- أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يُحِب أن يَطَّلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف؛ حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه موهمًا أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل: من سرق متاعنا، وكذلك لم يقل: إنا وجدنا متاعنا عنده، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في

ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق؛ ليحصل المقصود الحاضر وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال.

٣٨- لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحَقَّقه؛ إما بمشاهدة أو خبر مَن يثق به وتطمئن إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

٣٩- ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيَّه وصَفِيَّه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه ذلك أشد الحزن؛ فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة لا تقصر عن ثلاثين سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾، ثم ازداد به الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله قد وعد من نفسه الصبر الجميل.

ولا شك أنه وَفَّى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

٤٠- أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر- أذن الله حينئذ بالفرج؛ فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجةً واضطرارًا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي

أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

٤١- جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما على غير وجه التسخط؛ لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، ولم ينكر عليهم يوسف.

٤٢- فضيلة التقوى والصبر وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾.

٤٣- ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى؛ ليُحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها؛ لقول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

٤٤- لطف الله العظيم بيوسف؛ حيث نقله في تلك الأحوال وأوصل إليه الشدائد والمِحن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

٤٥- أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائمًا في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة؛ لقول يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠١﴾.

فهذا ما يَسَّر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك؛ فنسأله تعالى علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا؛ إنه جواد كريم. [٢/ ٨١٠-٨١٩].

الدرس ٦٤

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ۝٧٥﴾ [سورة الإسراء].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآيات:

١- دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له ألَّا يزال متملقًا لربه أن يثبته على الإيمان ساعيًا في كل سبب مُوَصِّل إلى ذلك؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وهو أكمل الخلق- قال الله له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ فكيف بغيره؟!

٢- وفيها تذكير الله لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَّته عليه وعصمته من الشر؛ فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم -عند وجود أسباب الشر- بالعصمة منه والثبات على الإيمان.

٣- أنه بحسب علو مرتبة العبد وتواتر النعم عليه من الله يَعظم إثمه ويتضاعف جرمه إذا فعل ما يُلام عليه؛ لأن الله ذَكَّر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لو فعل- وحاشاه من ذلك- بقوله: ﴿إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ۝٧٥﴾.

٤- أن الله إذا أراد إهلاك أمة تضاعف جُرمها وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم. [٢/ ٩٣٣].

الدرس ٦٥

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾ [سورة الإسراء].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يأمر تعالى نبيَّه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بإقامة الصلاة تامَّة -ظاهرًا وباطنًا- في أوقاتها ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾، أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، أي: صلاة الفجر، وسميت قرآنًا؛ لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار؛ ففي هذه الآية:

١- ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات المُوقعة فيه فرائض؛ لتخصيصها بالأمر.

٢- أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

٣- أن الظهر والعصر يُجمعان، والمغرب والعشاء كذلك للعذر؛ لأن الله جمع وقتهما جميعًا.

٤- فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل على فرضية ذلك. [٢/ ٩٣٤].

الدرس ٦٦

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الكهف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وقد دلَّت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

١- الحث على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

٢- الأدب فيمن اشتبه عليه العلم: أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

٣- صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

٤- جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

٥- الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

٦- شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

٧- ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين؛ لقولهم: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾. [٣/ ٩٥٣].

الدرس ٦٧

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الكهف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى -بعد تفسير الآية ٢١ من سورة الكهف وما قبلها- وفي هذه القصة- أي: قصة أصحاب الكهف:

١- دليل على أن مَن فَرَّ بدينه من الفتن سَلَّمه الله منها.

٢- أن من حرص على العافية عافاه الله.

٣- ومَن أوى إلى الله آواه الله وجعله هدايةً لغيره.

٤- ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العِز العظيم من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾. [٣/ ٩٥٤].

الدرس ٦٨

قال تعالى: ﴿... وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الكهف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

١- ففيها دليل على المنع من استفتاء مَن لا يصلح للفتوى؛ إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يَحجزه، وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس فنهيه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

٢- وفي الآية -أيضًا- دليل على أن الشخص قد يكون منهيًّا عن استفتائه في شيء دون آخر؛ فيُستفتى فيما هو أهل له بخلاف غيره؛ لأن الله لم يَنْهَ عن استفتائهم مطلقًا، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها. [٣/ ٩٥٥].

الدرس ٦٩

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [سورة الكهف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

ففي هذه القصة العظيمة:

١- اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعمًا دنيوية؛ فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها: أن مآلها الانقطاع والاضمحلال.

٢- وأنه وإن تمتع بها قليلًا، فإنه يُحرمها طويلًا.

٣- وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى مُوليها ومُسديها، وأن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ ليكون شاكرًا لله متسببًا لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

٤- الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

٥- أن المال والولد لا ينفعان إن لم يُعينا على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ: ٣٧].

٦- الدعاء بتلف مال مَن كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين وفخر عليهم.

٧- أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء ووجد العاملون أجرهم، فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: عاقبة ومآلا. [٣/ ٩٦٤].

الدرس ٧٠

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [سورة الكهف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله:

١- فمنها فضيلة العلم والرحلة في طلبه وأنه أهم الأمور، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رحل مسافة طويلة، ولقي النَّصَب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل؛ لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

٢- البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

٣- جواز أخذ الخادم في الحَضَر والسفر لكفاية المُؤن وطلب الراحة، كما فعل موسى.

٤- أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارالشوق لهذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾،

وكما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه -مع أن عادته التورية- وذلك تبع للمصلحة.

٥- إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

٦- جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس -من نصب أو جوع أو عطش- إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقًا؛ لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

٧- استحباب كون خادم الإنسان ذكيًّا فطنًا كيِّسًا؛ ليتم له أمره الذي يريده.

٨- استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعًا.

٩- أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله يُعان ما لا يُعان غيره؛ لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يَشتك منه التعب مع طوله؛ لأنه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فحينئذ تذكر أنه نَسِيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

١٠- أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًّا، بل عبدًا صالحًا؛ لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مِنَّةَ الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيًّا لذكر ذلك كما ذكره غيره، وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

١١- أن العلم الذي يُعلِّمه الله لعباده نوعان:

علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لدني؛ يَهبه الله لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- التأدب مع المعلم وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب؛ لقول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾؛ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يُظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جدًّا، فالذل للمعلم وإظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

١٣- تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه، فإن موسى- بلا شك- أفضل من الخضر.

١٤- تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مَهَرَ فيه، وإن

كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن أولي العزم من المرسلين؛ الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يُعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه، فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدث إذا كان قاصرًا في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم ألَّا يتعلمه ممن مَهَرَ فيه وإن لم يكن محدثًا ولا فقيهًا.

١٥- إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى والإقرار بذلك وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، أي: مما عَلَّمك الله تعالى.

١٦- أن العلم النافع هو العلم المُرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع وما سوى ذلك؛ فإما أن يكون ضارًّا، أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

١٧- أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثبات على ذلك: أنه يَفوته بحسب عدم صبره كثيرٌ من العلم، فمَن لا صبر له لا يُدرك العلم، ومَن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر -يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه- إنه لا يصبر معه.

١٨- أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علمًا وخبرةً بذلك الأمر، الذي أُمِرَ بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه أو لا يدري غايته ولا نتيجته

ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾، فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خُبراً بالأمر.

١٩- الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يُعرف ما يُراد منه وما هو المقصود.

٢٠- تعليق الأمور المستقبلة التي من أفعال العباد بالمشيئة، وألَّا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢١- أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطَّن نفسه على الصبر ولم يفعل.

٢٢- أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يُوقفه عليها؛ فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرًا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالًا لا يتعلق في موضع البحث.

٢٣- جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

٢٤- أن الناسي غير مُؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

٢٥- أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم: العفو منها وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق

عليهم ويرهقهم؛ فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسر؛ ليتيسر له الأمر.

٢٦- أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتُعَلَّقُ بها الأحكام الدنيوية؛ في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر؛ فاستعجل عَلَيْهِ السَّلَامُ وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

٢٧- القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنه «يُدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير»، ويُراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يَفتن أبويه عن دينهما أعظم شرًّا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يُظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خير من ذلك؛ فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر؛ فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

٢٨- القاعدة الكبيرة -أيضًا-: وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة: أنه يجوز ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير»، كما خرق الخضر السفينة لِتَعِيب؛ فتَسلم من غصب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما

في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي- جاز للإنسان، بل شُرع له ذلك؛ حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي- جاز ولو من غير إذن.

٢٩- أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

٣٠- أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

٣١- أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

٣٢- أن القتل قصاصًا غير منكر؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

٣٣- أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

٣٤- أن خدمة الصالحين -أو من يتعلق بهم- أفضل من غيرها؛ لأنه عَلَّل استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأن أباهما صالح.

٣٥- استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيبَ السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]،

وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]، مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

٣٦- أنه ينبغي للصاحب ألَّا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته حتى يُعْتِبَهُ وَيُعذِر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

٣٧- أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

٣٨- أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قَدَرٌ مَحْضٌ أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح؛ ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يُقَدِّر على العبد أمورًا يكرهها جدًّا، وهي صلاح دينه؛ كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه؛ كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه؛ ليعرفوه ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة. [٣/ ٩٧٥-٩٨٠].

الدرس ٧١

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [سورة طه].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: لا معبود بحق ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء، إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى.

١- من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد.

٢- ومن حسنها أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف.

٣- ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها.

٤- ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب مَن يحبها ويحب من يحفظها، ويحب مَن يبحث عن معانيها ويتعبد له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. [٣/ ١٠١٨-١٠١٩].

الدرس ٧٢

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [سورة طه].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: نوعناها أنواعًا كثيرة:

١- تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام.

٢- وتارة بذكر المَثُلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة.

٣- وتارة بذكر آثار الذنوب وما تُكْسِبُه من العيوب.

٤- وتارة بذكر أهوال القيامة وما فيها من المزعجات والمقلقات.

٥- وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنوع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم؛ فكونه عربيًّا، وكونه مصرفًا فيه ﴿مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه لم يكن له هذا الأثر. [٣/ ١٠٤٥].

الدرس ٧٣

قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويُؤخذ من هذه الآية الكريمة:

١- الأدب في تلقي العلم.

٢- وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر، حتى يَفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال.

٣- ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام مُلقي العلم؛ فإنه سبب للحرمان.

٤- وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب؛ فإن ذلك سبب لإصابة الصواب. [٣/ ١٠٤٦].

الدرس ٧٤

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [سورة الحج].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾؛ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره؛ فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته؛ الذي من عظمته وكبريائه:

١- أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

٢- أن كرسيه وَسِع السماوات والأرض.

٣- أن نواصي العباد بيده؛ فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

٤- وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو -لا ملك مقرب ولا نبي مرسل- أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة؛ فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها.

٥- أن العبادات كلها -الصادرة من أهل السماوات والأرض كلها- المقصود منها: تكبيره وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكبار؛ كالصلاة وغيرها. [٣/ ١١١٢].

الدرس ٧٥

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [سورة الحج].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ بذاته؛ الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، ومن غناه:

١- أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة.

٢- أنه ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا.

٣- أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَم.

٤- أن الخلق كلهم مفتقرون إليه؛ في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم.

٥- أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض -الأحياء منهم والأموات- في صعيد واحد؛ فسأل كل منهم ما بلغت أُمنيته، فأعطاهم فوق أمانيهم- ما نقص ذلك من ملكه شيء.

٦- أن يده سَحَّاء بالخير والبركات -الليل والنهار- لم يزل إفضاله على الأنفاس.

٧- ومن غناه وكرمه: ما أودعه في دار كرامته مِمَّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. [٣/ ١١١٣].

❁❁❁

الدرس ٧٦

قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [سورة الحج].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: كامل القوة، كامل العزة؛ **من كمال قوته وعزته:**

١- أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته ومشيئته؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٢- أنه يمسك السماوات والأرض أن تَزُولا.

٣- أنه يبعث الخلق كلهم -أولهم وآخرهم- بصيحة واحدة.

٤- أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيءٍ يسيرٍ وسوطٍ من عذابه. [٣/ ١١١٧-١١١٨].

الدرس ٧٧

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [سورة النور].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هاتين الآيتين فوائد منها:

١- أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومَن تحت ولايتهم من الأولاد- العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وَجَّه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ الآية، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾.

٢- الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه: أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذلك.

٣- جواز كشف العورة لحاجة؛ كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

٤- أن المسلمين كانوا معتادين للقيلولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل؛ لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

٥- أن الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يُمَكَّن من رؤية العورة، ولا

يجوز أن تُرى عورته؛ لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمرٍ ما يجوز.

٦- أن المملوك -أيضًا- لا يجوز أن يَرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

٧- أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي: أن يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يُلقيه مجردًا عن الدليل والتعليل؛ لأن الله -لما بَيَّن الحكم المذكور- عَلَّله بقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ﴾.

٨- أن الصغير والعبد مخاطبان كما أن وليهما مخاطب؛ لقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾.

٩- أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة كالقيء؛ لقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ مع قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حين سئل عن الهرة: «**إنها ليست بنجس؛ إنها من الطوافين عليكم والطوافات**».

١٠- جواز استخدام الإنسان مَنْ تحت يده من الأطفال على وجه معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾.

١١- أن الحكم المذكور المفصل إنَّما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ فليس إلا الاستئذان.

١٢- أن البلوغ يحصل بالإنزال؛ فكل حكم شرعي رُتِّبَ على البلوغ حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف: هل يحصل البلوغ بالسن أو الإنبات للعانة، والله أعلم. [٣/ ١١٧٩-١١٨٠].

الدرس ٧٨

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة النور].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لمَّا بَيَّن لنا هذه الأحكام الجليلة قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: الدالات على أحكامه الشرعية وَحِكَمِهَا؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ عنه فتفهمونها وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة؛ فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها يزيد في العقل وينمو به اللُّبُّ؛ لكون معانيها أجل المعاني وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه وللتفكر في آياته التي دعاه إليها- زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات:

١- دليل على قاعدة عامة كلية، وهي: أن «العرف والعادة مخصص للألفاظ كتخصيص اللفظ للفظ»؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعرف والعادة؛ فكل

مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف جاز الإقدام عليه.

٢- دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمى بيته بيتًا للإنسان.

٣- دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان؛ كزوجته وأخته ونحوهما يجوز لهما الأكل عادة وإطعام السائل المعتاد.

٤- دليل على جواز المشاركة في الطعام؛ سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض. [٣/ ١١٨٣].

الدرس ٧٩

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [سورة الفرقان].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي: وقال الكافرون بالله -الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إن هذا القرآن كذبٌ كَذَبه محمد وإفك افتراه على الله وأعانه على ذلك قوم آخرون. فَرَدَّ الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم والزور؛ الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه -لا هو ولا سائر الخلق- أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يُعينه على ذلك؛ ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ بهذا القول ظلمًا وزورًا، ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾، أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد استنسخها محمد، ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾، وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

١- رميهم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

٢- إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.

٣- أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

٤- أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد علمت حاله -وهم أشد الناس علمًا بها-: أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك. فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. [٣/ ١١٨٧-١١٨٨].

الدرس ٨٠

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾ [سورة القصص].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة:

١- أن آيات الله تعالى وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يَعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

٢- أن الله تعالى إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه وأتى بها شيئًا فشيئًا بالتدريج، لا دفعة واحدة.

٣- أن الأمة المستضعفة -ولو بلغت في الضعف ما بلغت- لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور؛ خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل -الأمة الضعيفة- من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، ومَلَّكهم بلادهم.

٤- أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها، ولا يكون لها إمامة فيه.

٥- لطف الله بأم موسى وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة؛ بأن الله تعالى سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

٦- أن الله يُقَدِّر على عبده بعض المشاق؛ ليُنيله سرورًا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرًّا أكثر منه، كما قَدَّر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهم البليغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجهٍ تطمئن به نفسها وتَقر به عينها وتزداد به غبطةً وسرورًا.

٧- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

٨- أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان ويتم به اليقين: الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المُقلقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾، أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

٩- أن من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونة للعبد على أموره: تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

١٠- أن العبد -ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه- فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يَرده عليها، ومع ذلك اجتهدت في ردِّه، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

١١- جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

١٢- جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

١٣- أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه: أن يُريه من آياته ويُشهده من بيناته ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه؛ لتعلم أن وعد الله حق.

١٤- أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز؛ فإن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه.

١٥- أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجَبَّارين الذين يفسدون في الأرض.

١٦- أن من قتل النفوس بغير حق وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض وتهييب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

١٧- أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة -بل قد يكون واجبًا- كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحًا له ومحذرًا.

١٨- أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، فإنه لا يُلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه كما فعل موسى.

١٩- أنه عند تزاحم المفسدتين -إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما- أنه يرتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يُقتل أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة، التي لا يَعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى؛ فتبعها موسى.

٢٠- أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه -إذا لم يترجح عنده أحد القولين- فإنه يستهدي ربه ويسأله أن يهديه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يُخيب مَنْ هذه حاله، كما خرج موسى تلقاء مدين؛ فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾.

٢١- أن الرحمة بالخلق -والإحسان على من يَعْرِف ومن لا يَعْرِف- من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

٢٢- استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا لها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾.

٢٣- أن الحياء -خصوصًا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة.

٢٤- المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

٢٥- أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول: أنه لا يُلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يَبتغ له ولم يستشرف بقلبه على عوض.

٢٦- مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقَدَّر به العمل، وإنما مرده العرف.

٢٧- أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بُضْعًا.

٢٨- أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يُلام عليه.

٢٩- أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان: أن يكون قويًّا أمينًا.

٣٠- أن من مكارم الأخلاق: أن يُحَسِّن خلقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾.

٣١- جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾.

٣٢- ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة؛ من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

٣٣- أن من أعظم العقوبات: أن يكون الإنسان إمامًا في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده: أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًّا.

٣٤- ما فيها من الدلالة على رسالة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلًا مطابقًا وتأصيلًا موافقًا، قَصَّه قصًّا صدَّق به المرسلين وأيد به الحق المبين من غير حضور شيء من تلك الوقائع ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة دَرَسَ فيها شيئًا من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قومًا جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه على مَن مجرد خبره يُنبئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه يُنبه العقول النيرة أنه من عند الله؛ كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصَدَّقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تُناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفَتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكايد وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها؛ لا يزداد إلا نموًّا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة لِلْعَالَمِينَ وهداية لِلْعَالمِينَ، ونورًا وبصيرةً للمتوسمين، والحمد لله وحده. [٣/ ١٢٨٦-١٢٨٩].

❀ ❀ ❀

الدرس ٨١

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [سورة العنكبوت].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءهم وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته؛ ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ بالعون والنصر والهداية. **دل هذا على:**

١- أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد.

٢- وعلى أن من أحسن فيما أُمِرَ به أَعانه الله ويَسَّر له أسباب الهداية.

٣- وعلى أَن من جَدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعي؛ فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمورٌ إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم؛ فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد؛ الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين وعلى ردِّ نزاع المخالفين للحق ولو كانوا من المسلمين. [٣/ ١٣٢٥].

الدرس ٨٢

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۞﴾ [سورة لقمان].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۞﴾، أي: آياته محكمة صدرت من حكيم خبير.

ومن إحكامها:

١- أنها جاءت بأجَلِّ الألفاظ وأفصحها وأبينها؛ الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

٢- أنها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

٣- أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة والأمور الغيبية- كلها مطابقة للواقع مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يُخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأتِ -ولن يأتي- علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

٤- أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

٥- أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ؛ الذي تعتدل به النفوس الخَيِّرة وتحتكم؛ فتعمل بالحزم.

٦- أنك تجد آياتها المتكررة -كالقصص والأحكام ونحوها- قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبرًا وأعمل فيها العقل تفكرًا- انبهر عقله وذهل لُبُّه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يُمْتَرَى فيه: أنه تنزيل من حكيم حميد. [٣/ ١٣٤٥-١٣٤٦].

الدرس ٨٣

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩﴾ [سورة الأحزاب].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

١- الاعتناء برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والغيرة عليه: أن يكون بحالة يشقُّ عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

٢- سلامته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا التخيير من تَبِعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه؛ إن شاء أعطى وإن شاء منع؛ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾.

٣- تنزيهه عما لو كان فيهن مَنْ تُؤْثِرُ الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة، وعن مقارنتها.

٤- سلامة زوجاته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله؛ فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه المُسخط لربه الموجب لعقابه.

٥- إظهار رفعتهن وعلو درجتهن وبيان علو هِممهن: أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

٦- استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يَكُنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

٧- ظهور المناسبة بينه وبينهن؛ فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات، طيبات مطيبات، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾.

٨- أن هذا التخيير داع وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

٩- أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يَكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [سورة الأحزاب]. [٣/ ١٣٨٢-١٣٨٣].

الدرس ٨٤

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الأحزاب].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة، فوائد:

١- الثناء على زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله سَمَّاه في القرآن، ولم يُسَمِّ من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة إلا أن المراد بها النعمة الخاصة.

٢- أنَّ المُعْتَق في نعمة الْمُعْتِق.

٣- جواز تزوج زوجة الدَّعِيِّ؛ كما صرح به.

٤- أن التعليم الفعلي أبلغ من القولي؛ خصوصًا إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

٥- أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يقترن بها محذور- لا يأثم عليها العبد ولو اقترن بذلك أمنيته: أن لو طلقها

زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأيِّ سبب كان؛ لأن الله أخبر أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخفى ذلك في نفسه.

٦- أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد بَلَّغ البلاغ المبين؛ فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه. وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أُوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

٧- أن المستشار مؤتمن، يجب عليه -إذا استشير في أمر من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ولو كان له حظ نفس فتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

٨- أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجه أن يُؤْمَر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال؛ فهو أحسن من الفرقة.

٩- أنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

١٠- فضيلة زينب رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أم المؤمنين؛ حيث تولى الله تزويجها من رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتقول: «زَوَّجكن أهاليكن، وزَوَّجني الله من فوق سبع سماوات».

١١- أن المرأة -إذا كانت ذات زوج- لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يَقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي

عدتها؛ لأنها قبل انقضاء عدتها هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها ولو من بعض الوجوه. [٣/ ١٣٨٨-١٣٨٩].

الدرس ٨٥

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة سبأ].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وآتيناه فضلًا من العلم النافع والعمل الصالح والنعم الدينية والدنيوية، ومن نعمه عليه:

١- ما خصه به من أمره تعالى الجمادات؛ كالجبال والحيوانات، من الطيور: أن تُؤَوِّب معه وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها مجاوبةً له، وفي هذا من النعمة عليه: أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضًا له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده- كان ذلك مما يُهيج على ذكر الله تعالى.

٢- أن ذلك -كما قال كثير من العلماء-: إنه طربًا بصوت داود؛ فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتمجيد بذلك الصوت الرخيم الشجيِّ المطرب- طرب كل من سمعه من الإنس والجن -حتى الطيور والجبال- وسبحت بحمد ربها.

٣- أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها؛ لأنه سبب ذلك، وتُسبح تبعًا له.

٤- ومن فضله عليه: أن ألان له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات، وعلَّمَهُ تعالى كيفية صنعته؛ بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حِلَقًا، ويصنعه كذلك، ثم يُدخل بعضها ببعض. [٣/ ١٤٠٩-١٤١٠].

الدرس ٨٦

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سورة سبأ].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

«... فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة؛ منها:

١- هاتان الجنتان اللَّتان غالب أقواتهم منهما.

٢- أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة؛ لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

٣- أن الله تعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم وَيرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

٤- أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة -الظاهر أنها: قرى صنعاء قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام- هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، أي: سيرًا مقدرًا يعرفونه ويحكمون عليه؛ بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾. [٣/ ١٤١٢-١٤١٣].

الدرس ٨٧

قوله تعالى في ختام قصة سبأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سورة سبأ].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«... لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾؛ صبار على المكاره والشدائد يتحملها لوجه الله ولا يَتسخطها، بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترف ويثني على مَن أولاها، ويصرفها في طاعته؛ فهذا إذا سمع بقصتهم وما جرى منهم وعليهم- عرف بذلك:

١- أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله.

٢- وأن من فعل مثلهم فُعِلَ به كما فُعِل بهم.

٣- وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنقمة.

٤- وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به.

٥- وأن الجزاء حق، كما رأى أُنموذجَه في دار الدنيا. [٣/ ١٤١٣-١٤١٤].

الدرس ٨٨

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾ [سورة فاطر].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يخاطب تعالى جميع الناس ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

١- فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم لم يُوجدوا.

٢- فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها لما استعدوا لأيِّ عمل كان.

٣- فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

٤- فقراء في صرف النقم عنهم ودفع المكاره وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم وإزالته لعسرهم لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

٥- فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

٦- فقراء إليه في تألههم له وحبهم له وتعبدهم وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يُوفقهم لذلك لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

٧- فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه؛ بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله ألَّا يَكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت- فهذا حَرِيٌّ بالإعانة التامة من ربِّه وإلهه؛ الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها. [٣٣/ ١٤٣٢-١٤٣٣].

الدرس ٨٩

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة ص].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصلٌ فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

١- أن الله تعالى يقص على نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبار من قبله؛ ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوقه إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تقربوا له والصبر على أذى قومه، ولهذا -في هذا الموضع- لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به أمره بالصبر وأن يذكر عبدَه داود؛ فيتسلى به.

٢- أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته؛ قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

٣- أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك؛ فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون؛ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٤- ما أكرم الله به نبيه داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من حسن الصوت العظيم؛ الذي

جعل الله بسببه الجبال الصُّم والطيور البُهم يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويُسبحن معه بالعشي والإشراق.

٥- أن من أكبر نعم الله على عبده: أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٦- اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى؛ كما جرى لداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

٧- أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

٨- أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في أغلب أحواله ملازمًا محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يَرِد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتًا يخلو فيه بربه وتَقر عينه بعبادته وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

٩- أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود- فزع منهم، واشتد عليه ذلك ورآه غير لائق بالحال.

١٠- أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

١١- كمال حلم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان وهو المَلِك، ولا انتهرهما ولا وبَّخهما.

١٢- جواز قول المظلوم لمن ظلمه: «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك، أو «باغ عليَّ»؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٣- أن الموعوظ والمنصوح -ولو كان كبير القدر جليل العلم- إذا نصحه أحد أو وعظه لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر؛ فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يُثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصِّرف.

١٤- أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي بينهم وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يَرُدُّ عن ذلك إلا استعمال تقوى الله والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

١٥- أن الاستغفار والعبادة -خصوصًا الصلاة- من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتَّب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

١٦- إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه وحسن الثواب، وألَّا يظن أن ما جرى لهما مُنقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه

بعباده المخلصين: أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم أزال الآثار المترتبة عليه كلها حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

١٧- أن الحُكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي؛ فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يَحل له الإقدام عليه.

١٨- أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يُلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

١٩- أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من فضائل داود ومن منن الله عليه؛ حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده: أن يَهب له ولدًا صالحًا؛ فإن كان عالمًا كان نورًا على نور.

٢٠- ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾.

٢١- كثرة خير الله وبِره بعبيده: أن يَمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

٢٢- تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

٢٣- أن كل ما أشغل العبد عن الله؛ فإنه مشئوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له.

٢٤- القاعدة المشهورة: «مَن ترك شيئًا لله عَوَّضه الله خيرًا منه»، فسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس تقديمًا لمحبة الله؛ فعوضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد؛ غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين؛ أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يَقدر عليها الآدميون.

٢٥- أن تسخير الشياطين لا تكون لأحد بعد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٢٦- أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان ملكًا نبيًّا يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبيِّ العبد؛ فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يَفعل ولا يترك إلا بالأمر؛ كحال نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الحال أكمل. [٤/ ١٤٩٤-١٤٩٧].

الدرس ٩٠

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فصلت].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا أحد أحسن قولًا، أي: كلامًا وطريقة، وحالة ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

١- بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين ومجادلة المبطلين؛ بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه؛ خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده؛ بذكر تفاصيل نعمه وسعة جوده وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله ونعوت جلاله.

٣- ومن الدعوة إلى الله: الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه.

٤- ومن ذلك: الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام وبر الوالدين.

٥- ومن ذلك: الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده؛ بما يشمله الدعوة إلى الخير كله والترهيب من جميع الشر. [٤/ ١٥٧٣].

الدرس ٩١

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [سورة الشورى].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يخبر تعالى بلطفه بعباده؛ ليعرفوه ويحبوه ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده -وخصوصًا المؤمنين- إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن:

١- أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله؛ بما يَسَّر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام: أن يُثَبِّتوا عباده المؤمنين ويحثوهم على الخير، ويُلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيًا لاتباعه.

٢- أَنْ أَمَرَ المؤمنين بالعبادات الاجتماعية؛ التي بها تقوى عزائمهم وتَنبعث هممهم ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه واقتداء بعضهم ببعض.

٣- أن قَيَّض كل سبب يَعوقه ويحول بينه وبين المعاصي؛ حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع

عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه أو على معصيته- صرفها عنه وقَدَّر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ الذي له القوة كلها؛ فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء. [٤/ ١٥٨٩-١٥٩٠].

❀ ❀ ❀

الدرس ٩٢

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [سورة الزخرف].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين الذين جعلوا لله تعالى ولدًا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد؛ الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، **وَأَنَّ ذلك باطل من عدة أوجه:**

١- أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

٢- أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائنٌ من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد؛ فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

٣- أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم: أن البنات أدون الصنفين؛ فكيف يكون لله البنات ويصطفيهم بالبنين ويُفضلهم بها؟! فإذًا يكونون أفضل من الله؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا!

٤- أن الصنف الذي نسبوه لله -وهو البنات- أدون الصنفين وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ من كراهته وشدة بغضه؛ فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

٥- أن الأنثى ناقصة في وصفها وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَ

مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾، أي: يجمَّل فيها لنقص جماله، فَيُجَمَّل بأمر خارج منه، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ⑱﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ⑱﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره، فكيف يَنسبونهن لله تعالى؟!

٦- أنهم جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الله إِنَاثًا؛ فتجرءوا على الملائكة العباد المقربين، ورَقُّوهم عن مرتبة العبادة والذل إلى مرتبة المشاركة لله في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثية؛ فسبحان مَن أظهر تناقض مَن كذب عليه وعاند رسله.

٧- أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته؛ فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يُسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها. [٤/ ١٦٠٥-١٦٠٦].

الدرس ٩٣

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [سورة محمد].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته؛ بمعنى: ما طُلب منه علمه وتمامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلى ذلك، **والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور**:

١- أحدها -بل أعظمها-: تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإنها توجب بذل الجهد في التأله له والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

٢- العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير؛ فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

٣- العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

٤- ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه -القائمين بتوحيده- من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به- فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

٥- معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرون مَن عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة؛ من جلب خير أو دفع شَرٍّ، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

٦- اتفاق كُتُب الله على ذلك وتواطئها عليه.

٧- أن خواص الخلق -الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا وعلمًا؛ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

٨- ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق -التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله وأبداها في كتابه وأعادها- عند تأمل العبد في بعضها لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك؛ فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد؛ بحيث يكون كالجبال الرواسي لا تزلزله الشُّبه والخيالات، ولا يزداد -على تكرر الباطل والشُّبه- إلا نموًّا وكمالًا.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير -وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته- فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجُمله ما لا يحصل في غيره. [٤/١٦٥٨-١٦٥٩].

الدرس ٩٤

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [سورة محمد].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

... ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم؛ فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جاءهم أمرٌ جد وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ من حالهم الأولى، **وذلك من وجوه:**

١- أن العبد ناقص من كل وجه لا قدرة له إلا إن أعانه الله؛ فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

٢- أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته وبوظيفة المستقبل، أما الحال فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تَفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

٣- أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة -مع كسله عن عمل الوقت

الحاضر- شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هَمَّ به ووَطَّنَ نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة؛ مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حَرِيٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره. [٤/ ١٦٦٠].

الدرس ٩٥

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٣٧﴾ [سورة الذاريات].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصلٌ في ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحِكَم والأحكام.

١- أن من الحكمة قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار؛ ليعتبروا بهم وأين وصلت بهم الأحوال؟

٢- فضيلة إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

٣- مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل؛ الذي أمر الله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأمته أن يتبعوا مِلَّته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

٤- أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام بالقول والفعل؛ لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون، أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولًا وفعلًا، ومكرمون -أيضًا- عند الله تعالى.

٥- أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام، فرد عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتم؛ لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

٦- مشروعيةَ تعرُّف مَن جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوع اتصال؛ لأن في ذلك فوائد كثيرة.

٧- أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ ولم يقل: «أنكرتكم»، وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

٨- المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِرى أضيافه.

٩- أن الذبيحة الحاضرة التي قد أُعَدِّت لغير الضيف الحاضر إذا جُعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

١٠- ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته معدًّا، لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق أو الجيران أو غير ذلك.

١١- أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وسيد مَن ضَيَّف الضيفان.

١٢- أنه قربه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا، أو ائتوا إليه»؛ لأن هذا أيسر وأحسن.

١٣- حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين؛ خصوصًا عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، وقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾، ولم

يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض؛ فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾، فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾، أو: «ألا تتفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا» ونحو ذلك.

١٤- أن من خاف من أحد لسبب من الأسباب فإن عليه أن يزيل عنه الخوف ويذكر له ما يُؤمن روعه ويُسَكِّن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

١٥- شدة فرح سارة -امرأة إبراهيم- حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها وصَرَّتها غير المعهودة.

١٦- ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم. [٤/ ١٧١١-١٧١٣].

الدرس ٩٦

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [سورة المجادلة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

١- لطف الله بعباده واعتناؤه بهم؛ حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل مَن ابتلي بمثل هذه القضية.

٢- أن الظهار مختص بتحريم الزوجة؛ لأن الله قال: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ فلو حَرَّمَ أَمَتَه، لم يكن ذلك ظهارًا، بل هو من جنس تحريم الطيبات الطعام والشراب تجب فيه كفارة اليمين فقط.

٣- أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها؛ لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها؛ سواء نَجَّزَ ذلك أو عَلَّقَه.

٤- أن الظهار محرم؛ لأن الله سَمَّاه ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾.

٥- تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ﴾.

٦- أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها باسم محارمه؛ كقوله: «يا أمي»، «يا أختي»، ونحو ذلك؛ لأن ذلك يُشبه المحرم.

٧- أن الكفارة إنما تجب بالعَوْدِ لما قال المظاهر على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

٨- أنه يجزئ في كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى؛ لإطلاق الآية في ذلك.

٩- أنه يجب إخراجها إن كانت عتقًا أو صيامًا قبل المسيس، كما قَيَّده الله؛ بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

١٠- أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس: أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع وعلم أنه لا يُمَكَّن من ذلك إلا بعد الكفارة- بادر بإخراجها.

١١- أنه لا بد من إطعام ستين مسكينًا، فلو جمع طعام ستين مسكينًا ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين لم يجز ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. [٤/ ١٧٨٩-١٧٩٠].

❁ ❁ ❁

الدرس ٩٧

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الجمعة].

قال رَحِمَه اللهُ تَعالى:

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

١- أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها والمبادرة والاهتمام بشأنها.

٢- أن الخطبتين يوم الجمعة فريضة يجب حضورهما؛ لأنه فَسَّر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

٣- مشروعية النداء للجمعة والأمر به.

٤- النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه؛ فدل ذلك على أن كل أمر -وإن كان مباحًا في الأصل- إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

٥- الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة وذَم مَن لم يحضرهما، ومِنْ لازم ذلك: الإنصات لهما.

٦- أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات: أن يُذَكِّرها بما عند الله من الخيرات وما لمُؤْثِر رضاه على هواه. [٤/ ١٨٣٠-١٨٣١].

الدرس ٩٨

سورة الجن

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه السورة فوائد عديدة:

١- وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة وغيرها.

٢- أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبعوث إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس؛ فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يُوحى إليه ويبلغوا قومهم.

٣- ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

٤- اعتناء الله برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحفظه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوته والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت من أماكنها، وأُزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدًا؛ فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

٥- شدة حرص الجن على استماعهم للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتراكمهم عليه.

٦- أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًّا -بل ولا يملك لنفسه- علم أن الخلق كلهم كذلك؛ فمن الخطأ والظلم اتخاذ مَن هذا وصفه إلهًا آخر.

٧- أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شيء منها. [٤/ ١٨٩٦-١٨٩٧].

الدرس ٩٩

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [سورة القيامة].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته عليه- بادره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه؛ فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: ١١٤]، وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾، ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ويجمعه الله في صدره؛ فقال: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾؛ فالحرص الذي في خاطرك إنما الداعي له حَذَر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك فلا موجب لذلك.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ أي: إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك؛ فحينئذ اتَّبِع ما قرأه واقْرَأْه، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ أي: بيان معانيه؛ فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون؛ فامتثل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية:

١- أدب لأخذ العلم: أن لا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

٢- وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يُوجب الرد أو الاستحسان: ألَّا يبادر برده أو قبوله قبل الفراغ من ذلك الكلام؛ ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهمًا يتمكن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب.

٣- أن النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما بَيَّن للأمة ألفاظ الوحي؛ فإنه قد بَيَّن لهم معانيه. [٤/ ١٩١٢].

وبهذا انتهى ما تَمَّ جمعُه وترتيبُه من الاستنباطات والفوائد، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ، وصلى الله وسَلَّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّينِ.

أحمد بن صالح بن عمر بن مرشد
ahmd577@gmail.com

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**